علم الكلام بين الأصالة والمعاصرة
وموقف المعارضين منه

بحث مقدم
إلى المؤتمر العلمي الأول
تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
المنعقدة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر ٢٠٢١/٣/٢٠
(الجزء الثالث)

إعـــداد
الأستـــاذ الدكتـــور
هشام عبد العزيز هلال الأزهري
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بدمياط

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد/

فإن علم الكلام وليد عصره وبيئته، في زمانه ومكانه، وظروفه وملابساته، وجوده وجود ضرورة واحتياج، وبرغم منازعات أهله وشقاقهم في مسائله الخلافية، نجد أنه قد اضطلع – في مجال الدفاع عن العقيدة الإسلامية – بمهمة كبرى في تاريخ الفكر الديني عامة، والإسلامي خاصة؛ إذ إنه قام بالرد على شبه الملحدين، والمناوئين، والمخالفين لعقيدة الإسلام، بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والتي لا يملك العقل السليم أمامها إلا الخضوع والإذعان.

فقديمًا قاوم المفكرون الإسلاميون على اختلاف نزعاتهم، ضلالات الفكر، وزيغ العقول، وتحريفات أهل الكتاب، ومن لهم شبهة كتاب، وأصحاب الديانات الوضعية، ولقد كان للمتكلمين النصيب الأوفر في ذلك، فكانت تلك مهمتهم الأولى، وقد أعدوا لها خير إعداد، ويدل على ذلك، أننا إذا تأملنا تعريف علم الكلام ذاته، وعوامل نشأته، نجد أنه قام من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المنكرين لها.

وفي العصر الحديث لا زال لعلم الكلام دوره في الدفاع عن دين الإسلام، وإن اتخذ هذا الدفاع شكلًا آخر في المسائل والأساليب والوسائل؛ فقد استجدت أفكار واتجاهات، بعضها إلحادي، وبعضها مشكك في الدين والأحلاق والقيم.

ولقد استخدم أصحاب هذه الأفكار وتلك الاتجاهات أساليب ووسائل حديثة، تسلحت بالعلم الحديث، كوسيلة من وسائل التشكيك، والاكتفاء والاستغناء بالعلم عن الدين.

ولم يكن علم الكلام بعيدًا عن هذه المستحدثات على الساحة الإسلامية والعالمية، فكان لها بالمرصاد؛ فبذل جهودًا كبيرة في ردها ونقضها، وإن ضعف تسويق هذه الردود، نظرًا للضعف العام الذي أصاب المسلمين اليوم.

ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان: (علم الكلام بين الأصالة والمعاصرة وموقف المعارضين منه)

وهو محاولة متواضعة لإبراز دور علم الكلام قديمًا في أصالته، وحديثًا في معاصرته، وأنه لم يكن له غناء في القديم، ولا يمكن تجاوزه حديثًا في الرد على ما استجد من شبهات، وإقامة الأدلة على صحة العقيدة الإسلامية، من جنس ما اعتمد عليه الملحدون والمشككون الجدد.

أسباب اختيار الموضوع:

١ — بيان أصالة علم الكلام، وأنه كان ضروريًا في زمانه، وقد قام برسالتها وقتها على أكمل وجه.

٢ — صلاحيته لكل العصور، فلا يمكن الاستغناء عنه، بشرط مواكبته لكل مستجد أو شبهة عقدية أو فكرية.

٣ — اضطلاع علم الكلام بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية باق، ما دام هذا الدين قائمًا إلى يوم الدين.

٤ - دفع التهمة عن علم الكلام قديمًا، وأنه كان مجرد جدال وسفسطة، وأنه ابتعد بطريقته ومنهجه عن طريق القرآن والسنة.

٥- رد قول من ذهب إلى أن علم الكلام لم يعد له وجود اليوم، وأنه لم تعد لنا به حاجة في العصر الحاضر، بعد أن استوفى مهمته ومسائله قديمًا.

فالدور الجديد لعلم الكلام هو الرد على الشبهات الحديثة التي تحاك ضد الإسلام وعقيدته، وهي الشبهات التي أثارت موجة من الإلحاد، أو على الأقل أحدثت خللًا في عقول بعض المعتنقين للإسلام، وخصوصًا أن بعض المكتشفات والنظريات الحديثة تزعم أن الكون أزلي، ولا حاجة للقول بوجود إله، والقدرة على السيطرة على الوجود اللازم لحياة الإنسان ومستقبله، بدون الحاجة إلى قوة غير منظورة تتحكم فيه، وتحدد له المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه.

ولا بد أن يكون هذا الرد بنفس أسلحة الخصم، وهي النظريات الحديثة، ببيان أنها إن لم تكن تؤيد قضايا العقيدة الأساسية فإنها لا تعارضها، هذا إذا كانت هذه النظريات ثابتة علميًا بالفعل.

منهج البحث:

تقتضي طبيعة البحث اتباع المنهج الاستقرائي النقدي؛ بعرض موجز لتاريخ علم الكلام، وأهميته في القديم والحديث، وبيان موقف المعارضين منه، وكيف يمكن استعادة دوره اليوم، وما الموضوعات التي يمكنه التصدي لها، وبأي وسيلة أو أسلوب.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث فيه، وخطته.

المبحث الأول: علم الكلام: تعريفه – موضوعاته – فائدته – نشأته.

المبحث الثاني: علم الكلام بين المعارضة والتأييد.

المبحث الثالث: الدور المعاصر لعلم الكلام والمنهج المتبع فيه.

المبحث الرابع: صور من التجديد المعاصر – قدم العالم وحدوثه أنموذجا

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

المبحث الأول

علم الكلام: تعريفه – موضوعاته – فائدته – نشأته.

أولًا: تعريف علم الكلام

عرف علم الكلام بتعريفات عدة، تنصب هذه التعريفات في خدمة العقيدة الإسلامية، والدفاع عنها ضد المناوئين لها، والمتربصين بها، والمشككين فيها، جلها أو بعضها.

ونذكر من هذه التعريفات:

١- تعريف الإمام الإيجي: فقد عرفه بقوله: «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»[(١)].

٢- تعريف السعد التفتازاني: وعرفه بقوله: «هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية»[(٢)].

٣- ومن أقدم التعريفات ما ورد عن الفارابي – فيلسوف الإسلام – بقوله: «صناعة الكلام، يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة، التي صرح بها واضع الملة، وتزيف كل ما خالفها بالأقاويل»[(٣)].

---

(١) ينظر: شرح المواقف، المواقف للقاضي عضد الدين بن عبد الرحمن الإيجي (ت: ٧٥٦هـ)، وشرحه للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت:٨١٦هـ)، (١/٤٠)، ت/ محمود عمر الدمياطي، ط١/دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩٨م، ١٤١٩هـ، وقارن: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبرى زاده، (٢/١٣١)، ط/ دار الكتب العلمية، سنة١٩٨٥م.

(٢) ينظر: شرح المقاصد، مسعود بن عمر بن عبد الله، الشهير بسعد الدين التفتازاني، (ت: ٧٩٢)، (١/٢٧)، ت/ إبراهيم شمس الدين، ط١/دار الكتب العلمية، سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٣) إحصاء العلوم، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، (ص١٠٧، ١٠٨)، ت/ د: عثمان أمين، ط/ دار الفكر العربي، الناشر/ مطبعة الاعتماد بمصر، ط٢، ١٩٤٩م.

٤- تعريف ابن خلدون: وعرفه بقوله: «هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنة»[١].

وإذا تأملنا هذه التعريفات نجد أنها تستخدم صيغة الاقتدار، أي: أن يكون لدى المتكلم القدرة التامة على المجابهة، والمواجهة والرد، وكذا العلم بجميع العقائد، وما يتوقف عليه إثباتها، من الأدلة ورد الشبه، وكذلك العلم بطرق الأدلة العقلية، وأيضا العلم بالعقائد المخالفة، والرد عليها، وإثبات بطلانها.

ومن هذه التعاريف تتضح مهمة علم الكلام والغرض منه، وهو الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد أي انحراف، أو هجوم، أو ارتياب، فقد كان لعلم الكلام وأهله الدور الأعظم في الرد على كل زيغ أو هوى، أو تشكيك أو ريبة، أو تضليل وتشويه، لهذه العقيدة البسيطة الواضحة الجلية.

فعلم الكلام إذاً موضوع لأمرين مهمين:

الأول: تقرير العقائد الإيمانية وإثباتها بالأدلة والبراهين، **والثاني**: دفع شبه المعترضين، والرد عليها بنفس المنهج.

لقد كان المتكلمون أكثر قدرة من غيرهم من علماء الإسلام، على مقاومة الأفكار والعقائد الدينية المخالفة لفكر وعقيدة الإسلام، وتتبع أصحاب هذا الفكر بالنقد والتفنيد[٢] والعمل على محو آثارها في نواحي الفكر الإسلامي، وإزالة الشوائب العالقة في أذهان من تأثر بها من المسلمين، ذوي العقول المريضة، والنفوس المهيضة.

---

(١) ينظر: مقدمة بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ص ٤٢٣)، ط/ دار القلم، ط٥، - بيروت - ١٩٨٤.

(٢) ينظر: الفكر الديني الشرقي القديم د: عبد الفتاح للغربي، ص١١٥، ١١٦.

ولقد اتفقت كلمة المتكلمين على أن علم الكلام يعتمد على النظر العقلي في أمر العقائد الدينية، ثم هم يختلفون في أن الكلام يثبت العقائد الدينية بالبراهين العقلية، كما يدافع عنها، أو هو إنما يدفع الشبه عن العقائد الإسلامية، الثابتة بالكتاب والسنة فقط، ومرجع هذا إلى الخلاف في العقائد الإيمانية، هل هي ثابتة بالشرع، ويفهمها العقل عن الشرع، ويلتمس لها بعد ذلك البراهين النظرية – كما يرى الأشاعرة – أو هي ثابتة بالعقل، ويأتي الشرع مؤيداً لها –كما يرى المعتزلة – وعلى كلٍ فإن النصوص الدينية قد قررت العقائد الدينية بأدلتها العقلية[١].

ومن هنا يتضح لنا أن مهمة علم الكلام هي توضيح أصول الدين، وإثباتها عن طريق العقل، والرد على الخصوم المنكرين لتلك العقيدة باستخدام نفس سلاحهم، وهو الحجج والبراهين المنطقية والعقلية.

والمراد بالخصوم: أصحاب العقائد المخالفة للإسلام، كاليهودية والنصرانية – المحرفتين – أو أصحاب العقائد الباطلة، كأصحاب الفكر الشرقي القديم، أو المنكرين لها أصلاً، أو الملاحدة، وقد التقي المسلمون بكل هذه الأطياف، في البلاد التي فتحوها، فقام المتكلمون بالرد عليهم، وإبطال مذاهبهم، متسلحين بسلاح العقل والمنطق، إلى جانب ما استنبطوه من الآيات القرآنية، التي ردت على المخالفين بشتى اتجاهاتهم، وأبطلت عقائدهم بكل بساطة ووضوح.

---

(١) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، الشيخ مصطفى عبد الرازق، (ص٢٦٤)، الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية — القاهرة – وارجع إلى د: عبد الرحمن بدوى في كتابه: مذاهب الإسلاميين (ص٧: ١٢)، ط/ بيروت، ١٩٩٦م؛ حيث عرض لعلم الكلام تعريفاً، وشرحاً وموضوعاً، وفائدةً، كما تعرض لعدة مسائل مهمة تخص علم الكلام.

ألقاب علم الكلام وسبب التسمية:

جمع التهانوي أسماء هذا العلم فقال: «علم الكلام، ويسمى بأصول الدين أيضاً وسماه أبو حنيفة ~ بالفقه الأكبر، وفي مجمع السلوك يسمى بعلم النظر والاستدلال، ويسمى أيضاً بعلم التوحيد والصفات»[١].

أما سبب تسميته بعلم الكلام: فإما لأنه بإزاء المنطق للفلسفة، وإما لأن أبوابه عنونت بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه، حتى غلب في التشاجر والسفك، فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم[٢].

يقول ابن خلدون: «وسموا مجموعه علم الكلام إما لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي»[٣].

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن البحث في العقائد قبل الإسلام كان يسمى كلامًا، فلما عاد الكلام فيها سمي باسمه القديم[٤].

---

(١) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، (١/ ٣٠)، ت/ لطفي عبد البديع، راجعه/ أمين الخولي، ط/ وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الناشر/ مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٣م، قارن: شرح العقائد النسفية، سعد الدين مسعود ابن عمر التفتازاني، (ص١٠)، ت/ د: أحمد حجازي السقا، الناشر/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: شرح المواقف، (١/٦٦،)٦٧، الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني، (١/٤٨).

(٣) مقدمة ابن خلدون، (ص٤٢٩).

(٤) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، الشيخ مصطفى عبد الرازق، (ص٢٦٥).

وهنا فائدة نستنبطها من كلام ابن خلدون، وهي أن علم الكلام علم نظري ليس تحته عمل، بخلاف علم الفقه مثلًا، فما يثبته العلم وهو الاعتقاد نظري أيضًا؛ لأنه متعلق بالقلب، لا بعمل الجوارح، وهذا مفيد جدًا في حالة تكفير غير المسلم؛ فإن تكفيره لا يترتب عليه أثر عملي، كقتاله أو استباحة أرضه وماله... وما إلى ذلك من أمور يخلط بينها كل من الغالين في الدين الذين يستحلون دماء المخالف، والجافين عنه الذين لا يكفرون غير المسلم؛ ظنًا منهم أن ذلك يؤدي إلى قتله وهضمه حقه.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق: «الكلام مقابل الفعل، كما يقال: فلان قوَال لا فعَال، والمتكلمون قوم يقولون في أمور ليس تحتها عمل، فكلامهم نظري لفظي، لا يتعلق بفعل، بخلاف الفقهاء الباحثين في الأحكام الشرعية العملية، وعلم الكلام يبحث فيما يتصل بالعقائد التي هي شئون غير عملية»[١].

وهذا يتبين من موضوعه.

ثانيًا: موضوعات علم الكلام

موضوع علم الكلام: «هو ذات الله ﷻ إذ يبحث فيه عن صفاته، وأفعاله في الدنيا، وكحدوث العالم، وفي الآخرة كالحشر، وأحكامه فيهما، كبعث الرسول، ونصب الإمام، والثواب والعقاب»[٢].

وقيل: هو «المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية، كما أنه يبحث عن أحوال الصانع، من القدم، والوحدة، والقدرة، والإرادة، وغيرها، وأحوال الجسم

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة، (ص٢٦٨).

(٢) شرح المواقف، (٤٨/١).

والعرض، من الحدوث والافتقار، والتركب من الأجزاء، وقبول الفناء، ونحو ذلك، مما هو عقيدة إسلامية، أو وسيلة إليها»(١).

ويرى المتقدمون من المتكلمين أن موضوعه: «الموجود من حيث هو، ويتميز عن الإلهي، كصدور الكثرة عن الواحد، ونزول الملك من السماء، وكون العالم محفوفاً بالعدم والفناء، إلى غير ذلك مما تجزم به الملة، دون الفلسفة»(٢).

ويجمل ابن خلدون موضوعه بقوله: «هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فتدفع البدع، وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد»(٣).

فموضوعات علم الكلام ومسائله تكمن في القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية(٤)، أما مسألة ذات الله ﷻ وصفاته، فهي أخطر وأهم مباحث علم الكلام؛ لدرجة أننا نجد الإمام النسفي، صاحب العقائد النسفية، يعرف علم الكلام بأنه: «التوحيد والصفات»(٥) غير أن علم الكلام حين تصور بصورته النهائية، أدخلت في مباحثه مباحث منطقية كثيرة، فقدم المتكلمون المتأخرون، من أمثال: الرازي، والإيجي، والنسفي، كتبهم الكلامية، بمقدمة طويلة في مسائل المنطق، فبحثوا في التصورات (الألفاظ) والتصديقات (القضايا) وأنواع البراهين الموصلة إلى العلم، وحد العلم،

---

(١) شرح المقاصد، التفتازاني، (١/ ١٨٨)، مفتاح السعادة، طاش كبرى زادة، (٢/ ١٣٢).
(٢) شرح المقاصد، (١/ ١٩١).
(٣) مقدمة ابن خلدون، (ص٤٣٠).
(٤) ينظر: شرح المقاصد ١/ ١٨٩.
(٥) ينظر: شرح العقائد النسفية (ص١٠).

كما تكلموا عن مسائل فلسفية محضة، مثل: الجوهر والعرض، والموجود والمعدوم، وأحكامها...

كل هذه المسائل قد اختلطت بعلم الكلام، وأصبحت كتب العقائد لا تخلو منها، وذلك بفضل معرفة المسلمين للفلسفة اليونانية، والمنطق الصوري الأرسطي، بوجه خاص، فعلم الكلام، قد أدرجت ضمن مسائله المنطق والفلسفة، ولكنه مع ذلك اختص بمسائل أخرى، لا تتناولها الفلسفة، ولا المنطق، كإثبات النبوة، والرسالة، والإمامة، والرؤية، والملائكة، والحشر الجسماني وغيرها[1].

واختلاط مسائل علم الكلام بالفلسفة والمنطق كان ضروريًا للرد على المنكرين والمخالفين لعقيدة الإسلام، ومثيري الشبه حولها بنفس أسلوب وأسلحة وطريقة الخصم في ذلك الوقت.

ثالثًا: فائدته وغايته: تكمن فائدة علم الكلام، في الأمور الآتية:

الأول: الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، قال ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[سورة الحشر: ١١]، فقد خص العلماء الموقنين بالذكر، مع اندراجهم في المؤمنين رفعاً لمنزلتهم، كأنه قال: وخصوصاً هؤلاء الأعلام منكم، وهذه الفائدة بالنظر إلى قوة الشخص الفكرية.

الثاني: إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم إلى عقائد الدين، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم. وهذه الفائدة بالنظر إلى تكميل الغير أو إقناعه.

الثالث: وبالنظر إلى أصول الإسلام: حفظ قواعد الدين أن تزلزلها شبه المبطلين.

---

(١) ينظر: الثقافة والعقيدة الإسلامية د: محمد عزيز نظمى سالم، (ص٤٥، ٤٦)، ط/ مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٦م.

الرابع: وبالنظر إلى فروع الدين: بناء العلوم الشرعية الفرعية عليه، فإنه أساسها، وإليه يؤول أخذها واقتباسها.

الخامس: صحة النية في الأعمال، وصحة الاعتقاد، وهذه الفائدة تستمد من النظر إلى قوة الشخص العملية، فالإخلاص في العمل، يكون بقدر معرفة الله ﷻوالرهبة منه، ولا يخفي أن هذا من ثمرات الاعتقاد الصحيح، وغاية ذلك كله، هو الفوز بسعادة الدارين، فإنه مطلوب لذاته، فهو منتهى الأغراض، وغاية الغايات[(١)].

يقول السعد التفتازانى عن غايته ومنفعته: «وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش والمعاد»[(٢)].

ويقول الإمام البيجوري عن ثمرته: «وثمرته معرفة الله بالبراهين القطعية، والفوز بالسعادة الأبدية»[(٣)].

ففوائده كثيرة ومتنوعة، وكلها ترجع إلى دفع التقليد وتقوية العقيدة[(٤)].

ونلاحظ أن الفائدتين الثانية والثالثة، هما أهم ما يتعرض لهما علم الكلام، فهو يهدف إلى إلزام المعاندين، والمنكرين للعقيدة الإسلامية بالحجج والبراهين، النقلية والعقلية، وبذلك تحفظ قواعد الدين – بحق – عن أن تزلزلها شبه المبطلين.

---

(١) ينظر: شرح المواقف ١/٥٧، ٥٨، القول السديد في علم التوحيد، الشيخ محمود أبو دقيقة، (١/٢١٧)، ت/ د: عوض الله حجازي، ط/الإدارة العامة لإحياء التراث، ط/١، سنة ١٤٠٥هـ. ١٩٩٥م. وقارن العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها (ص٢٨).

(٢) شرح المقاصد ١/١٩٠.

(٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد، الشيخ إبراهيم البيجوري، (ص١٦)، ط/المعاهد الأزهرية، سنة ١٩٩٧م.

(٤) ينظر: الثقافة والعقيدة الإسلامية، د: محمد عزيز نظمى سالم، (ص٤٧، ٤٨).

رابعًا: نشأة علم الكلام

نشأ علم الكلام على مدى قرن من الزمن، بعد معركة صفين (٣١هـ . ٦٥٧م) جدالاً عاماً، ثم انتهى قبل سقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ – ٧٥٠م) فناً مستوياً، له منهاجه وقضاياه المعينة.

ويبدو أن جميع القضايا الأساسية لعلم الكلام نبعت في هذا الدور(١)، فنشأة هذا العلم قد اتخذ وقتاً طويلاً، حتى تم تكوينه وأصبح معروفاً بين المسلمين، وإن كان الخلاف والكلام، قد ظهر في عهد الإمام على ﷺ إلا أن الفكر الإسلامي لم يعدم خلافاً قبل ذلك، حتى في عصر النبي ﷺ ولنشر هنا إشارة مجملة، إلى بداية التفكير العقلي، وظهور القضايا، التي تعتبر الآن لب علم الكلام، مع بداية الإسلام نفسه:

لقد جاء الإسلام يقرر أن الدين الحق واحد، هو وحى الله ﷻ إلى جميع أنبيائه، وهو عبارة عن الأصول التي لا تتبدل بالنسخ، ولا يختلف فيها الرسل، وكان القرآن الكريم، يجادل المخالفين من أرباب الدين من العرب وغيرهم، رداً على الشبهات التي كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد، على أنه كان لا يمد في حبل الجدل حرصاً على الألفة، وهذا الجدل في العقائد، عرض له القرآن للحاجة، وكان لهذه المعاني الدينية، التي قررها الإسلام منذ نشأته، أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول(٢).

وجاء القرآن الكريم مخاطباً للعقل، مستنهضاً للفكر، بالنظر في الكون ودلائله وعجائبه، وقص علينا من صفات الله ﷻ ما أذن الله لنا، أو ما أوجب علينا أن نعلم،

---

(١) ينظر: تاريخ الفكر العربي ص٢٠٨.

(٢) ينظر: رسالة التوحيد، (ص٩).

لكن لم يطلب التسليم به، بمجرد أن جاء بحكايته، ولكن أقام الدعوى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة(١).

ومع ذلك فإن المسلمين «في الصدر الأول كانوا لا يرون ألا سبيل لتقرير العقائد إلا بوحي، أما العقل فمعزول عن الشرع وأنظاره، وكانوا يرون أن التنافر والتجادل في الاعتقاد يؤدي إلى الانسلاخ من الدين، فقررت عقائد الدين في القرآن الكريم المقطوع به في الجملة والتفصيل»(٢).

ومهما يكن في القرآن من تعرض للجدل، ومن دعوة إلى الجدل برفعة، عند الحاجة في مثل قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ..﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فإن القرآن ليس كتاباً جدلياً، ولم تقم دعوته إلى الإيمان على جدل، وقد مضى زمن النبي ﷺ والمسلمون على عقيدة واحدة، وهي ما جاء في كتاب الله ﷻ(٣).

وينبغي هنا الإشارة إلى أمرين هامين:

الأمر الأول:

أن هناك أموراً عقلية وقضايا، كانت مقررة بين المسلمين زمان النبي ﷺ لم يكن فيها نزاع، فقد «تقرر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه – أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله ﷻوبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى به إليهم، وإرادته لاختصاصهم

(١) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، (ص٢٦٩: ٢٧٢).

(٢) المرجع السابق، (ص٢٧٢)، وهذا القول فيه بعض التجوز؛ إذ إنهم أعملوا عقولهم في فهم النصوص والعمل بها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

برسالته، وما يتبع ذلك، مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل[1].

الأمر الثاني:

أنه لم يكن بين المسلمين في عهد النبي ﷺ خلاف ظاهر، غير أنه قد روي في مدة مرضه ﷺ خلاف في أمور اجتهادية، لا تتصل بمسائل العقيدة، كاختلافهم عند قول النبي ﷺ في مرض موته: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ، قال عُمَرُ: إِنَّ النبي ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا، فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ، قال: قُومُوا عَنِّي ولا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ»[2]، وكاختلافهم في التخلف عن جيش أسامة فقال قوم بوجوب الإتباع لقوله ﷺ: «لعن الله من تخلف عنه»[3]، وقال قوم بالتخلف انتظاراً لما يكون من رسول الله في مرضه.

كما رويت عنهم ألوان من الجدال نهاهم رسول الله ﷺ عنها، جاء في كتاب (صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام) للسيوطي نقلاً عن كتاب (ذم الكلام) لشيخ الإسلام إسماعيل الهروى (ت: ٤٨١هـ): «أخرج من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضباً حتى، وقف عليهم فقال: يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم

---

(١) رسالة التوحيد، (ص٩، ١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَاب الْعِلْمِ، بَاب كِتَابَةِ الْعِلْمِ، (١/٥٤)، برقم: (١١٣).

(٣) لم أعثر عليه بنصه، ولكن ورد في السنن ما يفيد أن النبي ﷺ أوصى بتنفيذ بعث أسامة، ينظر السنن الكبرى للبيهقي، (٦/٢٦٦)، برقم: (١٢٩٣٠)، جامع الأحاديث، للسيوطي، (٢٤/٤٢٠)، (٢٧٤١٧).

باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به»[١].

ووردت أبواب كاملة، بها جملة من الأحاديث الصحيحة في القدر، وكلها تشير إلى حقيقة لا تقبل الشك، وهى أن مشكلة القدر كانت مثارة في عهد الرسول ﷺ وأنه قد أجاب فيها بكثير من الأحاديث، وهى في مجموعها لا تبلغ حد الشقاق، أو التنازع بين الصحابة[٢].

وبعد وفاة النبي ﷺكان أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين على ما كان عليه في عصر النبي ﷺ فإنه كان يصدع بكلمة الوحي، فلا يستطيع أحد أن يجد عنها محيصاً، وإذا ما ظهر خلاف، قضي الأمر فيه برده إلى الرسول ﷺ وقد حدث في عهد الخلفاء الراشدين خلاف في أمور اجتهادية، وهي وإن لم تكن متصلة بالأحكام العملية، فإن لها من الخطر، ما جعلها أساساً لخلافات مستمرة بين المسلمين، وعلى قواعدها قام كثير من الفرق الإسلامية، فظهر بين المسلمين عقب وفاة النبي ﷺ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه بنحوه، كِتَاب الْقَدَرِ، (٤/٤٤٣)، برقم: (٢١٣٣)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من هذا الْوَجْهِ. وينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، (ص٢٨١، ٢٨٢)، وقارن: التفكير الفلسفي في الإسلام، د: عبد الحليم محمود، (ص٨٧، ٨٨)، ط/ دار المعارف، ط٢، بدون تاريخ..

(٢) ينظر: مدخل إلى دراسة الفكر الإسلامي، د: محمد السيد الجليند، (ص٢٥)، بدون طبع أو تاريخ، وقارن: التفكير الفلسفي في الإسلام، (ص٩٦، ٩٧).

اختلاف في وفاته، حتى قال قوم منهم: إنه لم يمت، ولكن رفع، كما رفع عيس بن مريم[1].

وقد كان لهذا الخلاف أثر في بعض أقاويل الشيعة في أئمتهم، كما اختلفوا فيمن يخلف النبي ﷺ فقالت الأنصار: منا إمام ومنكم إمام، وطال الكلام بينهم في ذلك، حتى تم اختيار أبي بكر الصديق خليفة للمسلمين، بعد ما روى أن الأئمة من قريش[2]، وحديث الخلافة له شأن عظيم في قيام الفرق الإسلامية، وهو أكبر مظاهر الخلاف، التي حدثت منذ وفاة النبي ﷺ إلى ختام عهد أبي بكر، وأيام عمر{.

واختلفوا كذلك في قتال مانعي الزكاة، ويبدو أن هذا الخلاف كان أصلاً لما حدث بعد ذلك من الخلاف في الإيمان والإسلام وتضمنهما للعمل، أو لا، ثم اختلف المسلمون في تنصيص «أبي بكر» على «عمر» { بالخلافة، وفيما اتخذه عمر في أمر

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، (٢/٢٧٢)، ط/ دار صادر، بيروت.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث علي بن أبي طالب ﷺ، باب ذكر فضائل القبائل، (٤/٨٥)، برقم: (٦٩٦٢)، والنسائي في سننه من حديث أنس بن مالك ﷺ باب الأئمة من قريش، (٣/٤٦٧)، برقم: (٥٩٤٢)، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: إسناده صحيح، (ص١٤٤٨)، ينظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت: ٨٠٦هـ)، ط/ دار ابن حزم، بيروت – لبنان – ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

الخلافة من شورى بين ست من الصحابة، ثم اختلفوا في أمر عثمان ﷺ وأنكر قوم علياً في آخر أيامه فعالاً، كما اختلفوا بعد مقتله، هل كان ظلماً أو لا[١].

والحقيقة أن الخلاف في زمان النبي ﷺ وكذا في عهد أبي بكر وعمر والنصف الأول من حكم عثمان } لم يكن خلافاً ذا بال، أو أثر كبير في شقاق المسلمين، وتنازعهم فيما بعد، فالخلاف الحقيقي، ذي الأثر الأكبر، قد ابتدأ من نهاية عهد عثمان> إلى مقتل الإمام علي ﷺ ومن تلك الآونة ابتدأت الخلافات والانقسامات بين المسلمين، فتشتتوا أحزاباً وفرقاً.

ثم «توالت الأحداث بعد ذلك، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين، غير أن بناء الجماعة قد انصدع، وانفصمت عرى الوحدة بينهم، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة، وأخذت الأحزاب في تأييد آرائهم، كل ينصر رأيه على رأى خصمه، بالقول والعمل، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل، وغلا كل قبيل، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ... وغلا بعض الشيعة، فرفعوا علياً، أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية، أو ما يقرب منه، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد»[٢].

وتبين مما ذكرنا أن أسس الخلافات، التي قامت عليها بعض الفرق الإسلامية، وجدت في آخر عهد الخلفاء الراشدين، ولئن كان الحجاج بين هذه المذاهب قام على

---

(١) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة (ص٢٨٣، ٢٨٤)، وقارن: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص١١٢: ١١٨).

(٢) رسالة التوحيد (ص١٢، ١٣).

النقل، في غالب أمره، فهو كان أحياناً مشوباً بالنظر العقلي[١]؛ فنرى مثلاً في أواخر عهد الراشدين وبداية الدولة الأموية، خلاف القدرية في القدر والاستطاعة، من «معبد الجهني» (ت: ٨٠هـ)، و«غيلان الدمشقي» (ت: بعد ١٠٥هـ)، و«الجعد بن درهم» (ت: نحو ١١٨هـ)، ولقد تبرأ منهم المتأخرون من الصحابة، ثم حدث في أيام «الحسن البصري» (ت: ١١٠هـ)، خلاف «واصل بن عطاء الغزّال» (ت: ١٣١هـ) في القدر، والمنزلة بين المنزلين، وأخذ الجدل في هذه المسائل ينتشر وينحو منحى كلامياً، ثم كثرت الفرق بعد ذلك، وكثر معها قضايا علم الكلام، والنزاع حولها[٢].

ولكن هذا الخلاف لم يثمر شيئاً في علم الكلام، إلا من وقت أن احتدم النقاش حول القدر، وظهر تعصب كل فريق لرأيه، يقول الإمام «محمد عبده»: «كانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار، واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب، اختلف فيها «واصل بن عطاء» وأستاذه «الحسن البصري» واعتزله يعلم أصولاً، لم يكن أخذها عنه»[٣].

---

(١) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة (ص٢٨٥).

(٢) ينظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (ت: ٤٢٩هـ)، (ص٣٥)، وما بعدها، ت/ محمد عثمان الخشت، ط/ مكتبة ابن سينا، بدون تاريخ، والتبصير في الدين، أبو المظفر، طاهر بن محمد الإسفراييني، (ص١٣، ١٤)، ت/ محمد بن زاهد الكوثرى، ط/ مطبعة الأنوار، ط١، ١٩٤٠م، وتمهيد لتاريخ الفلسفة (ص٨٠)، وما بعدها، القول السديد في علم التوحيد، (١/١٣، ١٤).

(٣) رسالة التوحيد (ص١٤).

ولم يقف الخلاف عند تلك المسألتين بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية، أو نفيها عنه، فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها، ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه، فآمنوا بها، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، ثم جاء من بعدهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات، ففريق أشبهوا في الذات، باعتقاد اليد والقدم، والوجه، عملاً بظواهر النصوص، فوقعوا في التجسيم الصريح، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات، بإثبات الجهة والاستواء، والنزول، وأمثال ذلك فآل قولهم إلى التجسيم[١].

«ولم يبق في هذه الظواهر، إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم، والإيمان بها، كما هي، لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها، مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن...ثم لما كثرت العلوم والصنائع، وولع الناس بالتدوين والبحث، في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة، في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني، من العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، زائدة على أحكامها، لما يلزم ذلك من تعدد القديم بزعمهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، وقضوا بنفي صفة الإرادة، فلزمهم نفي القدر؛ لأن معناه سبق الإرادة للكائنات، وقضوا بنفي السمع والبصر... وقضوا بنفي الكلام؛ لشبه ما في السمع والبصر، ولم يعقلوا صفة الكلام، التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها»[٢].

إن اعتماد المعتزلة على العقل بالدرجة الأولى، وأخذهم من كتب الفلسفة، ما

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص٤٢٧، ٤٢٨).

(٢) المرجع السابق، (ص٢٢٨).

لاق بعقولهم، فرق السبل بأتباع «واصل بن عطاء» حتى صاروا بالعشرات، وأيدتهم الدولة العباسية، وهي في ريعان القوة، فغلب رأيهم، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناهضونهم، معتصمين بقوة اليقين، وفيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه، وبدأ علم الكلام كما انتهى، مشوباً بمبادئ النظر في الكائنات، جرياً على ما سنه القرآن من ذلك، وحدثت فتنة القول بخلق القرآن، فانتصر لها العباسيون، وأمسك عن القول، أو صرح بالأزلية، عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة[١].

وإذا كان «واصل بن عطاء» أول من أظهر الاعتزال وأشاعه، فإنه قد أخذ مذهبه عن الإمام «أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الهاشمي» (ت: ٩٨هـ) ويقال: إن أول من أنشأ مذهب الاعتزال هو الإمام أبو هاشم المذكور، وأخوه «الحسن بن محمد ابن الحنفية» (ت: ١٠١هـ، وقيل: ٩٥هـ) كما قيل: إن «الحسن بن محمد» كان أول المرجئة، وله فيه تصنيف، وعلى هذا يكون التدوين في مسائل الكلام، قد بدأ في العهد الأموي[٢].

وجملة القول: إنه قد ظهر في هذا العهد، الخلاف بين الفرق التي أشرنا إليها، والتي احتدم النزاع بينها، وكان كل فريق يعتمد أي وسيلة من وسائل الدفاع، من جدل، يقوم على أدلة نقلية وعقلية، ثم تولدت مسائل اعتقادية كانت موضع تجادل، وتنازع، وافترق المسلمون فيها فرقاً، فظهر علم الكلام، على أيدي هذه الفرق[٣].

---

(١) ينظر: رسالة التوحيد (ص١٥، ١٦).

(٢) ينظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة (ص ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) ينظر: المرجع السابق، (ص٢٨٧).

أسباب نشأة علم الكلام:

يمكن لنا – مما سبق – أن نستخلص أسباب نشأة علم الكلام، والتي ترجع في الحقيقة إلى أسباب داخلية، وأخرى خارجية:

أولاً: الأسباب الداخلية

أ- تعرض القرآن لمنكري الأديان، والإلهيات، والنبوات، والرد عليهم، بمختلف الدلائل، وكان من الطبعي أن ينهج علماء الأمة نفس المنهج، فقاموا بالرد على المخالفين، وإن كانوا قد توسعوا في ذلك، فاتخذوا سبلاً أخرى، بجانب ما جاء به القرآن الكريم[١].

ب- ورود المتشابه في القرآن الكريم: فقد ورد في الكتاب العزيز آيات محكمة، وأخرى متشابهة، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧]، ولقد اختلف المسلمون في فهم الآيات المتشابهة، من مثل قوله ﷻ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧)، وقوله: ﴿..يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ..﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿..وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]، فكانت هذه الآيات وأمثالها، مدعاة للخلاف في مسألة الصفات، فبين مسلِم ومؤول، ومشبه ومجسم، ومفوض ومعطل، دار الخلاف بين المسلمين، وتفرقوا أشياعاً، كلٌ يناصر وجهة نظره، ويؤيدها بالحجج والدلائل.

---

(١) ينظر: الثقافة والعقيدة الإسلامية، د: محمد عزيز نظمى سالم، (ص٥١).

جـ - تطور العقلية الإسلامية، من النقلية التي تؤمن وتعتقد من غير بحث، أو نقاش، إلى العقلية التي تبحث، وتنظر، وتصبغ مسائل الدين بصبغة علمية فلسفية، وهذا ما حدث، فإن العصر الإسلامي، الأول عاش في إسلام لا يعتوره كثير من الجدل، فلما هدأ الناس، أخذوا ينظرون ويبحثون، ويتوسعون في النظر والبحث، ويجمعون بين الأشباه والنظائر، ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات، وذلك يستتبع ضمناً، اختلاف وجهة النظر، واختلاف الآراء والمذاهب.

د — اختلاف المسلمين حول المسائل السياسية، من الخلافة والإمامة، إلى ما كان من نشوء الأحزاب والفرق السياسية والدينية، ولكلٍ رأيه ومذهبه، وطريقته في الاستدلال، بالأدلة النقلية والعقلية، في تأييد مذهبه، والرد على المخالفين[١].

ثانياً: الأسباب الخارجية:

وتتلخص هذه الأسباب في الآتي:

أ- أن كثيراً ممن دخل في الإسلام بعد الفتح، كانوا من ديانات مختلفة، يهودية، ونصرانية وزرادشتية، وبراهمة، وصابئة، ودهرية... الخ، وكان من هؤلاء علماء، ومفكرون، أخذوا يفكرون في شأن الدين الجديد والقديم، ويثيرون مسائل من القديم، يلبسونها لباس الإسلام، وهذا يعلل ما نراه في كتب الفرق، من أقوال بعيدة كل البعد عن العقيدة الحقة.

ب - أن بعض فرق الإسلام، وخاصة المعتزلة، جعلت من أهم أغراضها الدعوة للإسلام، والرد على المخالفين فانكبوا على أقوالهم وآرائهم، يبحثونها ويردون عليها، ويتجادلون فيما بينهم، فأصبحت البلاد الإسلامية، ساحة للجدل، تعرض فيها كل الآراء، وكل الديانات، ولا شك أن الجدل يستدعى النظر والتفكير.

---

(١) ينظر: الثقافة والعقيدة الإسلامية (ص٥١ ،٥٢)، قارن: تاريخ المذاهب الإسلامية، (ص١٣).

جـ- حركة الترجمة للكتب الفلسفية اليونانية، لا سيما عندما اضطر أوائل المتكلمين من المعتزلة إلى الاطلاع عليها؛ للرد على خصومهم، والذين كانوا على علم بهذه الفلسفة؛ ليتسلحوا بنفس سلاح الخصم في الرد عليهم، وإفحامهم بالحجة والبرهان[١].

وإذا كانت هذه هي أسباب نشأة علم الكلام قديمًا؛ فإنه قد استجد اليوم على الساحة الإسلامية ما يدعو إلى قيام علم كلام جديد – سنعرض لأسبابه في المبحث الثالث بإذن الله –.

---

(١) ينظر: ضحى الإسلام، (١/٣: ٨)، تاريخ المذاهب الإسلامية (ص١٣: ١٥)، الثقافة والعقيدة الإسلامية (ص٥٢)، مدخل إلى دراسة الفكر الإسلامي (ص٣٠).

المبحث الثاني

علم الكلام بين المعارضة والتأييد

انقسمت آراء العلماء على تنوعهم حول علم الكلام، ما بين مؤيد ومعارض، منذ ظهوره إلى اليوم، ونعرض لهم فيما يلي:

أولاً: المعارضون

بالرغم من الحاجة الملحة لهذا العلم، وهو مواجهة العقائد والأفكار الباطلة المضلة، والرد عليها، إلا أن هناك كثيراً من العلماء، خاصة السلفية والمحَدِّثين، قاموا بنقده والهجوم عليه، مثل ابن تيمية في كتابيه: «تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل» و «منهاج السنة النبوية في صلاح حال الراعي والرعية» وغيرهما، والإمام السيوطي في كتابه: «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام» والأخير قد ورد فيه كثير من النصوص، التي ذم فيها أئمة سلف المسلمين علم الكلام، ونورد هنا بعضا منها:

قال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي ~ يوم ناظر حفصاً الفرد (ت: نحو من ٢٠٣هـ)– وكان من متكلمي المعتزلة – يقول: «لأن يلقى الله ﷻ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله، خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاماً، لا أقدر أن أحكيه»[١] وحكى الكرابيسى أن الشافعي ~ سئل عن شيء من الكلام فغضب، وقال: «سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه، أخزاهم الله» وقال أيضاً: «لو علم الناس بما في الكلام لفروا منه فرارهم من الأسد» وقال أيضاً: «إذا

---

(١) مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ)، (١/٤٥٤)، ت/ السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث – القاهرة – ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.

سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى، أو غير المسمى، فاشهد أنه من أهل الكلام، ولا دين له» وقال الزعفراني: قال الشافعي: «حكمي في أصحاب الكلام، أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام».

وقال أحمد بن حنبل ~: «لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام، إلا وفي قلبه دغل» وبالغ في ذمه، حتى هجر «الحارث المحاسبي» مع زهده وورعه، بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة، قال له: «ويحك ألست تحكى بدعتهم أولاً، ثم ترد عليهم» وقال: «علماء الكلام زنادقة».

وقال الإمام مالك ~: «أرأيت إن جاء من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟» وقال أبو يوسف ~: «من طلب العلم بالكلام فقل تزندق» وقال الحسن ~: «لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم».

وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، وقالوا: ما سكت عنه الصحابة } – مع أنهم أعرف بالحقائق، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم – إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر، ولذلك قال النبي ﷺ : «هلك المتنطعون»[1]، قالها ثلاثًا، أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء، واحتجوا بأن ذلك لو كان من الدين؛ لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقته، ويثنى عليه وعلى أربابه، فقد علمهم الاستنجاء وندبهم إلى الفرائض، وأثنى عليهم، ونهاهم عن الكلام في القدر، وقال: «أمسكوا عن القدر» وعلى هذا استمر الصحابة } فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم، وهم الأستاذون والقدوة، ونحن الأتباع

(١) رواه مسلم في صحيحه، كِتَاب الْعِلْمِ، بَاب هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، (٤/٢٠٥٥)، برقم: (٢٦٧٠).

والتلاميذ[١].

وبجانب هذا نجد أقوالاً لكثير من العلماء توافق ما سبق، وقد اقتصرنا على ما ذكرنا خشية الإطالة[٢].

ثانياً: المؤيدون

قبل بيان قول المؤيدين ينبغي الإشارة إلى أن الذم السابق لعلم الكلام كان متوجهًا وبالأساس إلى أصحاب البدع والضلال عن صحيح العقيدة، من أمثال: الجهمية

(١) ينظر في هذا: صون المنطق الكلام عن فني المنطق والكلام، للسيوطي (ص٣٣)، وما بعد، تعليق على سامي النشار، ط/ دار الكتب العلمية، سنة ١٩٤٧م، وقد نقل هذا عن شيخ الإسلام إسماعيل الهروي في كتابه: «ذم الكلام» وينظر كذلك: إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، (١/ ٨٧، ٨٨)، ط/ النور الإسلامية، بدون تاريخ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، (١٥٩/٧)، ت/ عبد اللطيف عبد الرحمن، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، (ص٢٢٣)، ط/ المكتب الإسلامي - بيروت - ط/٤، سنة١٣٩١م، التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل، للإمام عبد الحليم محمود، (ص١٨٠: ١٩٣)، ط/ دار الكتب الحديثة، سنة١٩٧٣م، وله التفكير الفلسفي في الإسلام، (ص٩٣: ٩٥)، الثقافة والعقيدة الإسلامية، (ص٤٩، ٥٠).

(٢) ينظر على سبيل المثال كتب الإمام الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام، (ص١٠٥)، وما بعد، ط/ دار المنهاج، ط١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م، إحياء علوم الدين، (٨٩/١، ٩٠)، تحريم النظر في كتب الكلام، ت/ عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ط/ عالم الكتب - السعودية - الرياض، ط/١، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.«الاعتقاد»، موفق الدين بن قدامة المقدسي، (ص٧١: ٧٥)، ت/ عادل عبد المنعم أبو العباس، ط/ مكتبة القرآن، سنة ١٩٩٠م،

المعطلة، والمشبهة والمجسمة، وكثير من ضلالات المعتزلة؛ فهؤلاء كانوا يثيرون العقائد والأفكار الضالة في المجتمع، فقام علماء أهل السنة بالرد عليهم أحيانًا، والتنبيه على فساد معتقدهم أحيانًا أخرى، كما لا يخفى أن هذا الذم غير متوجه للأشاعرة والماتريدية (مجموع أهل السنة)؛ لأنهم لم يوجدوا بعد، فذم ما انتهوا إليه من تقرير للعقيدة بناء على نقد علماء السلف لعلم الكلام جهل مبين، واستخفاف بعقول المتلقين، يقول جمال الدين القاسمي (١٢٨٠ – ١٣٣٢هـ): «فتشديد الإمام الشافعي على أهل الكلام كان في زمنه مخصوصًا بأرباب الأهواء الخارجين عن الحق، فأطلقه باعتبار عرف أهل زمانه، ثم صار هذا الاسم عامًا بعده» [(١)].

أما المؤيدون لعلم الكلام، فقد رأوا أن هذا العلم واجب وفرض كفائي، إن لم يكن لتقرير العقائد والنظر فيها، فإنه ضروري لمجابهة أهل العقائد والمذاهب وإبطالها؛ فإننا إذا أهملنا هذا العلم، وقمنا بنقده وتفنيده، انتهى الأمر بهذا العلم إلى الإحراق، أو الإغراق، فمن يقوم بمهمة الحجاج ودفع الشبه عنه، وشد عضد الدين وتأييد قضاياه بالعقل والمنطق، ورد الشاك والمرتاب إلى رشده، أو على الأقل إقامة الحجة عليه؟، ومن يدفع شبه المعترضين، ويرد على أصحاب الأهواء والملل والنحل المختلفة؟.

فلا بد من وجود من يتصدى لهؤلاء، فيرد عليهم بنفس أسلحتهم من البراهين والأدلة العقلية والمنطقية، وأن يكون في كل بلد من يقوم بهذا الواجب، وعلم الكلام بهذا فرض كفاية، وإنما يتعين على كل مكلف معرفة ما يصح به اعتقاده في أصول الدين لا غير، ولا يتعين عليه معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه؛ فلا بد في كل قطر من

---

(١) دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، (ص٩٠)، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

داعٍ لأهل السنة، يحل الشبه، ويرد على أهل البدع، ويصفي قلوب أهل الحق عن وساوس المبتدعة[(١)].

ولقد دافع الإمام الأشعري عن علم الكلام في رسالته: (استحسان الخوض في علم الكلام) وأورد شبه الطاعنين في علم أصول الدين، الذين نسبوه إلى الضلال، وذكر من جملة ما احتجوا به: أن الكلام في الحركة والسكون، والجسم والعرض، والألوان والأكوان، وصفات الباري ﷻ بدعة وضلالة، وأنه لو كان هدى ورشادًا لتكلم في النبي ﷺ وخلفاؤه وأصحابه من بعده، فلم يتركوا لأحد مقالًا فيما للمسلمين إليه حاجة، فلما لم يرووا عنه الكلام في شيء من ذلك عُلم أن الكلام فيه بدعة، والبحث عنه ضلالة؛ لأنه لو كان خيرًا لتكلموا فيه، ولا يخلو ذلك من وجهين: إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه، أو لم يعلموه بل جهلوه، فعلى الأول يسعنا السكوت عنه مثلهم؛ لأنه لو كان من الدين لما سكتوا، وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله مثلهم؛ لأنه لو كان من الدين ما جهلوه.

وأجاب الإمام عن ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: قلب ذلك عليهم؛ بأن يقال: إن النبي ﷺ لم يقل: (إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعًا ضالًا) فقد لزمهم أن يكونوا مبتدعة ضلالًا؛ إذ تكلموا في شيء لم يتكلم فيه النبي ﷺ وضللوا من لم يضلله ﷺ.

الثاني: أن يقال: إن النبي ﷺ لم يجهل شيئًا مما ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض والحركة والسكون...الخ، معينًا، وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة } غير أنها معينة أصولها في القرآن والسنة، جملة غير مفصلة؛ كالحركة والسكون الذين يدلان

---

(١) منهاج العابدين، (ص٧٦)، ت/ محمود مصطفى حلاوي، ط/ دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

على التوحيد، ومنه ما أخبر به تعالى عن إبراهيم عليه السلام في قصة أفول الكوكب والشمس والقمر، وكذا الكلام في أصول التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والكلام في التمانع والتغالب، مرجعه إلى قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وكذا الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل والبعث إنما هو مأخوذ من القرآن.

الثالث: أن هذه المسائل التي سألوا عنها قد علمها رسول الله ﷺ ولم يجهل شيئًا منها مفصلًا، غير أنها لم تحدث في أيامه معينة فيتكلم فيها أو لا يتكلم، وإن كانت أصولها موجودة في القرآن والسنة.

ثم استشهد الإمام ببعض المسائل التي استجدت أيام الصحابة } والتي اختلفوا فيها، كبعض مسائل الميراث والحدود والطلاق؛ فإنهم ردوها وقاسوها على ما فيه نص، وكذا ينبغي رد حكم الحوادث التي تحدث في بعض مسائل الأصول إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبديهة، وغير ذلك، فيرد كل شيء إلى بابه، ولا تخلط العقليات بالسمعيات، والعكس، فلو حدث في أيام النبي ﷺ الكلام في خلق القرآن وفي الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه كما بين ما حدث في أيامه من مسائل[1].

يقول الإمام الغزَّالي مبرزاً حجة المؤيدين ومؤيدًا للشيخ الأشعري: وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا: إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض،

---

(١) رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، (ص٨٧: ٩٠، ٩٤، ٩٥)، نشرها عن الأصل المطبوع (الطبعة الثانية) وعلق عليها الأب ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي، حيدر آباد الدكن – الهند – ١٣٤٤هـ.

وهذه الاصطلاحات الغربية، التي لم تعهدها الصحابة } فالأمر فيه قريب؛ إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم، كالحديث، والتفسير، والفقه.. فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح، وإن كان المحذور هو المعنى، فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم، ووحدانية الخالق وصفاته، كما جاء في الشرع، فمن أين تحرم معرفة الله ﷻ بالدليل؟.

وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب، والعداوة والبغضاء، وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم، ويجب الاحتراز عنه، كما أن الكبر، والعجب، والرياء، وطلب الرياسة، مما يفضي إليه علم الحديث، والتفسير، والفقه، وهو محرم يجب الاحتراز عنه، ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه، وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها، والبحث عنها محظوراً، وقد قال الله ﷻ: ﴿...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ...﴾ [النمل: ٦٤]، وقال ﷻ: ﴿..لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ [الأنفال: ٤٢]،وقال ﷻ: ﴿...إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا...﴾ [يونس: ٦٨]،أي: حجة وبرهان.

وقال ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ..﴾[الأنعام: ١٤٩]،وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ... ﴾ إلى قوله: ﴿...فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ...﴾ [البقرة: ٢٥٦: ٢٥٨]؛ إذ ذكر ﷻ احتجاج إبراهيم عليه السلام ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه، قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ....﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال ﷻ: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا...﴾[هود: ٣٢]، وقال ﷻ في قصة فرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣: ٣٠].

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره، محاجة مع الكفار، فعمدة أدلة المتكلمين

في التوحيد قوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وفي النبوة: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ....﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي البعث: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ...﴾ [يس: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات والأدلة، ولم تزل الرسل & يحاجون المنكرين ويجادلونهم، قال ﷻ: ﴿..وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ...﴾ [النحل: ١٢٥]، فالصحابة } أيضاً كانوا يحاجون المنكرين، ويجادلون عند الحاجة، وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم، وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق، علي بن أبي علي طالب ﷺ إذ بعث ابن عباس { إلى الخوارج فكلمهم... فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان.

وروى أن الحسن ناظر قدرياً فرجع عن القدر، وناظر علي بن أبي ﷺ رجلاً من القدرية، وناظر عبد الله بن مسعود ﷺ يزيد بن عميرة في الإيمان...

فينبغي أن يقال: كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيراً، وقصيراً لا طويلاً، وعند الحاجة، لا بطريق التنصيف والتدريس واتخاذه صناعة، فيقال: أما قلة خوضهم فيه، فإنه كان لقلة الحاجة؛ إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان، وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم، واعترافه، وانكشاف الحق وإزالة الشبهة، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه؛ لطال لا محالة إلزامهم، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه، فهكذا كان دأبهم في الفقه، والتفسير، والحديث أيضاً، فإن جاز تصنيف الفقه، ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور، إما ادخاراً ليوم وقوعها، وإن كان نادراً، أو تشحيذاً للخواطر، فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة، لتوقع وقوع الحاجة، لتشحيذ

الخاطر، أو لادخار الحجة، حتى لا يعجز عنها عند الحاجة، على البديهة والارتجال، كمن عد السلام قبل القتال، ليوم القتال(١).

وقد أشار الإمام الغزالي أيضاً إلى أهمية علم الكلام، وأن أهله هم الذين يقومون بالدفاع عن الإسلام والذب عنه ضد المخالفين والمعاندين وذلك في كتابه المنقذ من الضلال(٢).

كما أننا نجد بعضاً من الذين ذموا علم الكلام، قاموا يدافعون ويجادلون في الدين؛ لبيان وجه الحق، وتثبيت عقائد الملة، يقول البغدادي: «أعلم أنه لا خصلة من الخصال، التي تعد في المفاخر لأهل الإسلام، من المعارف والعلوم، وأنواع الاجتهادات، إلا ولأهل السنة والجماعة في ميدانها، القدح المعلى، والسهم الأوفر، فدونك أئمة أصول الدين، وعلماء الكلام، من أهل السنة، فأول متكلم من الصحابة «على بن أبي طالب» ﷺ حيث ناظر الخوارج في مسائل الوعد والوعيد وناظر القدرية في المشيئة، والاستطاعة، والقدر، ثم «عبد الله بن عمر» } حيث تبرأ من «معبد الجهني» في نفيه القدر، وأول متكلمى أهل السنة من التابعين: «عمر بن عبد العزيز» ﷺ وله رسالة بليغة في الرد على القدرية، ثم الإمام «الزهري» وهو الذي أفتى «عبد الملك بن مروان» بدماء القدرية.

ومن بعد هذه الطبقة «جعفر بن محمد الصادق» وله كتاب «الرد على القدرية» وكتاب «الرد على الخوارج» ورسالة في الرد على الغلاة من الروافض، وأول متكلميهم من الفقهاء وأرباب المذاهب: «أبو حنيفة» و«الشافعي» فإن أبا حنيفة له كتاب في

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين، جزء العقائد، (ص٨٨، ٨٩)، قارن: التبصير في الدين، الإسفراييني، (ص٥٨، ١٩٨).

(٢) (ص٣٣٦: ٣٤٠)، ط/ دار المعارف، سنة ١٩٨٨م.

الرد على القدرية سماه كتاب «الفقه الأكبر» وله رسالة أملاها في نصرة قول أهل السنة: إن الاستطاعة مع الفعل، ولكنه قال إنها تصلح للضدين، وعلى هذا قوم من أصحابنا، وللشافعي كتابان في الكلام أحدهما: «في تصحيح النبوة والرد على البراهمة» والثاني: «في الرد على أهل الأهواء» فأما المريسي من أصحاب أبي حنيفة فإنما وافق المعتزلة في خلق القرآن، وأكفرهم في خلق الأفعال، ثم من بعد الشافعي، تلامذته الجامعون بين علم الفقه والكلام، وكان «أبو العباس بن سريج» أبرع الجماعة في هذه العلوم، وله نقض كتاب الجاروف على القائلين بتكافؤ الأدلة»[١].

وقد بين الإمام جمال الدين القاسمي مكانة علم الكلام، وأظهر فضله، وقرر أن العلماء متفقون على وجوب وجود مدافع، ومتكلم إسلامي في كل بلد، وذلك في كتابه «دلائل التوحيد»[٢]وحكى فتوى شرعية لسلطان العلماء «العز بن عبد السلام» (ت: ٥٧٧- ٦٦٠هـ)، ذكر فيها أن علم الكلام فرض كفاية، ويجب ألا يخلو أي قطر من عالم في الكلام، حتى يقوم بالرد على المتحيرين، والشاكين، والمعاندين، ودلل على أن الصحابة قد جادلوا وناقشوا، وقد سكتوا حيث وجب السكوت، وتكلموا حين تحتم عليهم الكلام، فهم لا يسكتون على بدع ومنكرات أبداً، بل إن الرسول ﷺ هو أول من قام بحل الشبه، كما قام الصحابة والتابعون بالرد على أصحاب الأهواء والبدع ومناظرتهم[٣].

ومما لاشك فيه أن ما قاله السلف في حق علم الكلام من ذم «إنما يتوجه إلى المراء، والجدال، واللجاج في أصول الدين الظاهرة، بما ليس تحته عمل، وهو التنطع

---

(١) الفرق بين الفرق، (ص٢١٤، ٢١٥).

(٢) (ص١٠، ١١)، ت/ محمد حجازي، ط/ مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٩٨٦م.

(٣) راجع: دلائل التوحيد (ص٨٧: ٩٠).

المقيت، كالجدل في طبيعة الذات الإلهية، وما سوى ذلك، مما ليس للعقل فيه مدخل، بل يتلقى من صاحب الشرع، والذين يملكون سبيل الجدال في الدين – لا الجدال عن الدين بمعنى الدفاع عنه – قد أنذرهم الله ﷻ بقوله: ﴿..وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ..﴾ [الرعد: ١٣، ١٤]، وقول الرسول ﷺ حين خرج على قوم يتراجعون في القدر: «أبهذا أمرتم أم بهذا جئت إليكم...»[1].

وبهذا يظهر أن علم الكلام المؤسس على الكتاب والسنة، والذي يهدف إلى الثمرات التي أشرنا إليها، ليس مراداً لسلف الأمة الذين ذموه، وإلا فأين العلم الذي يتكفل بمهمة التثبيت، والدفاع على الوجه الذي ذكرناه؟، إن قيل هو القرآن، والسنة المبينة الشارحة له، يقال في هذا الكلام دور فاسد؛ لأن إثبات الصانع – وهو أهم قضايا هذا العلم – سيكون بكلامه، أي: سيتوقف على كلامه، وكلام الصانع متوقف على ثبوته ووجوده، وهذا هو الدور الفاسد بعينه، على أنا نقول لهؤلاء: ماذا تقولون في مجادلة القرآن للخصوم، وبخاصة في مجال العقيدة، هل تنكرون عليه ذلك؟ حاشا أن يقولوا بهذا، إذاً فهم يعترفون بأن الجدال مطلوب، لبيان صدق العقيدة التي يعتبرها المجادل أمام خصومه، وبيان تهافت أدلة الخصوم على عقيدتهم، وفي هذا الإطار ينبغي أن يكون نقد الغيورين من السلف لكل من عارضهم، أما إذا تجاوز الأمر هذا الحد،

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كِتَاب الْقَدَرِ بَاب ما جاء في التَّشْدِيدِ في الْخَوْضِ في الْقَدَرِ، (٤/٤٤٣)، برقم: (٢١٣٣) بلفظ: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بهذا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ» وقال: «وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من هذا الْوَجْهِ»، وهو حديث حسن. ينظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (١/١٠٩)، ت/ محمود عمر الدمياطي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

فاعتقد أنه تحكم لا مبرر له، وهنا يظهر أن الجدال عن الدين، تثبيتاً أو دفاعاً، هو مهمة العقيدة، وأما الجدال في الدين والمراء فيه، فهو التنطع المذموم»[١].

ونخلص من ذلك إلى أن الحاجة إلى علم الكلام والجدال عن العقيدة أيام السلف الصالح قليلة؛ فالدين غض طري، وأهله أهل لغة وفهم، فلما دخل الأعاجم في الإسلام احتاج بعضهم إلى مزيد بيان، وبعضهم ممن أشرب عقيدته السابقة لا يزال في شك وريب، وبعضهم تعمد إثارة الشبه والأضاليل حوله، فكان لا بد لهذا الدين من رجال يقومون به، ويشحذون الهمم في رد الشبه، وإحداث الجواب على ما استحدث من أسئلة، يعبر عن هذا المنهج أحد أئمة السلف أنفسهم، وهو الإمام الحسن البصري؛ حيث يقول: «ولم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ويجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد، وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات، ويحذرون به من المهلكات»[٢].

ترجيح وتوجيه:

إذا تأملنا رأى المعارضين مع إطلالة على الظروف التي أحاطت به نشأة وتطوراً، يتضح لنا عدة أمور أخذوها على علم الكلام، وكانت سبباً في مهاجمة من هاجمه، وذم من ذمه، وتتلخص هذه الأمور في الآتي:

١- مغايرة بعض المتكلمين لمنهج السلف، في الاستدلال على العقائد، والبعد قليلاً أو كثيراً، عن منهج القرآن والسنة، والصحابة والتابعين }.

---

(١) العقيدة والثقافة الإسلامية صـ٣١، ٣٢.

(٢) المنية والأمل، أحمد بن يحيى المرتضى، (ص١٣) ت/ توما أرنلد، طبعت بمطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، ١٣١٦هـ.

٢- مزج بعض المتكلمين طريقتهم بطريقة الفلاسفة، وبخاصة المتأخرين منهم، وتعرضهم لبعض قضايا الفلسفة، واستعارتهم ألفاظاً لم تكن معروفة عند سلف الأمة.

٣- جرأة بعض المتكلمين على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وقياسهما بمنظار العقل، وكذلك جرأتهم على الحكم على صحابة رسول الله } وإنكارهم عليهم أشياء فعلوها، مما أوغر صدور علماء السلف عليهم.

٤- إسهام علم الكلام، في زيادة الخلاف والفرقة بين المسلمين، مما أدى إلى تكثير الفرق والمذاهب الإسلامية، التي استخدمت الجدل والأقيسة - الفاسدة في بعض الأحيان - لنصرة مذهبهم.

٥- دخول المتطفلين، ومن لا علم له ولا دين، دائرة علماء الكلام، مع أنه لا ينبغي لكل أحد.

٦- محاولة بعض المتكلمين (المعتزلة) فرض عقائدهم وأفكارهم بالقوة، وإلزام الناس بها، مما أدى إلى بغض الكلام وأهله، كما حدث في فتنة خلق القرآن، زمان المأمون، والمعتصم، والواثق.

ونرى أن هذه الأمور قد أهملت الجوانب الإيجابية الكثيرة لعلم الكلام - أشرنا إليها سلفا - والتي سدت ثلمة، وردت هجمة الخارجين عن العقيدة الحقة، والفكر الصحيح، وهنا نجد أنفسنا أمام فريقين: فريق يذم علم الكلام وأهله، وفريق يبين مدى الحاجة إليه، ويضع الضوابط والقيود، التي تجلب نفعه، وتنفي خبثه، فمن عارض علم الكلام، نظر إلى ضرره وآفاته، ومن أيده نظر إلى فوائده وإيجابياته:

فأما الفريق الأول: فراعهم جرأة بعض المتكلمين على كتاب الله ﷻ وحديث رسوله ﷺ والصحابة والتابعين }، وهذا نتيجة حتمية لاتخاذهم العقل منهجًا وطريقًا، وتحكمه وتحكيمه في كل شيء، فكما أن للعقل مجاله، له أيضاً حدوده التي يجب

الوقوف عندها، فلا اجتهاد مع نص ظاهر، وإنما نعمل العقل في فهم النصوص، بما لا يتعارض مع أصول العقيدة، ولا يحدث شقاقاً بين أفراد الأمة.

وكذا على العقل أن يسلم ويقبل أحاديث خير البرية – ما ثبتت صحتها – ومحاولة فهمها في حدود التنزيه الكامل لله ﷻ من صفات الحوادث، وأحوال المحدثين، وما كان للمتكلمين أن يتعرضوا لأصحاب رسول الله ﷺ وهو الذي حذر من إيذاء أصحابه، بأي شكل من الأشكال.

ولا يخفى أن معظم هذه الانتقادات موجهة إلى المتكلمين من غير أهل السنة، وخصوصًا المعتزلة الذين أتى عليهم وقت فرضوا فيه بعض آراءهم بالقوة، فاستقطبوا بعض الخلفاء العباسيين، للضغط على علماء الأمة للقول بخلق القرآن، مما آثار العامة والخاصة عليهم، ورفضهم لعلم الكلام وقضاياه جملة وتفصيلاً.

كما كان لدخول العامة والجهلاء في دائرة المتكلمين أمر ذو خطر كبير، فقد كانت له آثاره السيئة التي ظهرت فيما بعد، ولذا نجد كثيراً من العلماء يحذرون العامة من الدخول في لبابه، مثل الغزالي الذي ألف كتاباً بعنوان: «إلجام العوام عن علم الكلام»[١]، وكذا في كتابه: «إحياء علوم الدين»[٢]، ، كما ألف السيوطي كتاب: «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام» في الغرض نفسه.

وفي هذا الصدد نذكر لهؤلاء العلماء وقفتهم الجادة لتحذير العامة، وكل من لم يكن من أرباب هذا العلم من الولوج فيه على جهالة وقلة تمكن؛ فوضعوا القواعد والضوابط، التي يحتاج إليها من يريد التبحر في علم الكلام، فعقد الشعراني فصلًا في

---

(١) ينظر مثلاً: (ص٦٣: ٦٥).

(٢) (ص٨٩، ٩٢).

اليواقيت والجواهر[١] لعلاج هذه الآفة، كما وضع الإمام الغزالي عدة ضوابط للسالكين فيه قائلًا: «فاعلم أن الحق، أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل، يدفع شبه المبتدعة، التي ثارت في تلك البلدة، وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم، كتدريس الفقه، والتفسير... فالعالم الذي ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم، لا بد فيه من ثلاث خصال:

إحداها: التجرد للعلم والحرص عليه، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام، وإزالة الشكوك إذا عرضت.

الثانية: الذكاء، والفطنة، والفصاحة، فإن البليد لا ينتفع بفهمه والأحمق لا ينتفع بحجاجه، فيخاف عليه من ضرر الكلام، ولا يرجى فيه نفعه.

الثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح، والديانة، والتقوى، ولا تكون الشهوات غالبة عليه، فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين، فإن ذلك يحل عنه الحجر، ويرفع السر الذي بينه وبين الملاذ، فلا يحرص على إزالة الشبه، بل يغتنمها؛ ليتخلص من أعباء التكليف؛ فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم، أكثر مما يصلحه»[٢].

كما وضع آخرون جملة من الشروط التي ينبغي توافرها في علم الكلام، حتى يكون صحيحاً محموداً، منها: «أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يكون كلاماً أصلاً، ولما لم يلزم من قصد موافقة الشرع الموافقة في نفس الأمر، عد بعضهم كلام أهل الاعتزال من الكلام، وإن لم يوافق الكتاب والسنة، فظهر من هذا التفصيل، أن الكلام من العلوم الشرعية، لكن إذا كان على طريقة الكتاب والسنة، وأن هناك كلاماً

---

(١) ينظر: (ص٢١، ٢٨)، ط/ البابي الحلبي، سنة ١٩٥٩م.

(٢) إحياء علوم الدين، (ص٩١).

مموهاً، يشبه الكلام، وليس بذاك ككلام أهل الاعتزال وأمثاله، فذلك علم شرعي باعتبار دلائله»[١].

وقد أبدى الإمام الغزالي تحفظاً على تعلم الكلام، فإنه – كما يقول – لا يصلح لكل أحد، فينبغي أن يبتعد هذا العلم عن تشويشات المبتدعة، بأنواع الجدل؛ لأن العامي ضعيف، يستنفره جدل المبتدع، وإن كان فاسداً، ولقد أجمع السلف الصالح، على حفظ هذه القواعد عن العوام، خوفاً من تلبيسات المبتدعة؛ لأن الكلام ضرر في حقهم؛ فحذر من آفاته التي من الممكن أن يقع فيها بعض أهله، فقال: «وإياك والمماراة والمجادلة؛ فإنها داء محض لا دواء له، فاحترز منه جهدك؛ فإن من ارتداه لم يفلح، إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته وفضله ولطفه»[٢].

وتفصيل ذلك: أن العوام المشتغلين بالحرفة والصناعات، يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم؛ لأن تعليمهم الكلام ربما يثير ريبهم، ويزلزل عقيدتهم، ولا يمكن بعد ذلك الإصلاح، أما العامي المعتقد للبدعة، فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف، والكلام المقنع، من سياق أدلة القرآن والحديث، الممزوج بفن من الوعظ والتحذير، فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين، فالجدل مع هذا ومع الأول حرام، ء وكذلك من وقع في شك، إذ يجب إزالته باللطف والوعظ، والأدلة القريبة المقبولة، البعيدة عن تعمق الكلام، واستقصاء الجدل[٣].

فليس كل أحد يستطيع الجدال بضوابطه، بل لا بد أن يكون عالما بطرق الحجاج بالتي هي أحسن، يقول أبو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤هـ): «وقد نطق الكتاب

---

(١) مفتاح السعادة، طاش كبرى زادة، (١٣٢/٢، ١٣٣).

(٢) منهاج العابدين، (ص٧٦).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين، (ص٩٠).

بالمنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقد ورد الأمر به لمن علم وأتقن، فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]»[١].

ولأنه علم لا يتيسر لكل أحد، ولتصدر من ليس له بأهل بالجدال فيه؛ بين الإمام «محمد عبده» كيف أمسى هذا العلم على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية الأمر، أيدي العابثين، حتى خرجوا به عن حد الجادة[٢].

وأما الفريق الآخر: وهو الذي رأى أن بعض تلك الأمور مجانبة للصواب، فقد أيد وناصر علم الكلام، ومن رأيه أن تغيير المتكلمين لمنهج السلف كان ضرورة وقتية، وحاجة ملحة؛ فإن الحاجة في زمان الصحابة والتابعين، لم تكن داعية إلى الجدل، والدخول في مناقشات مع المخالفين إلا قليلاً، فلم يكن قد ظهر بعد المبتدعون في الدين، أو على الأقل المجاهرون الداعون إلى الفتنة، وشق عصا الطاعة، فقد ظهرت هذه الحوادث بعد ذلك، كما لم يعرف المسلمون بعد الكتب اليونانية، من الفلسفة والمنطق، التي لم تكن ترجمت بعد، وهى التي اطلع عليها المخالفون، فأخذ بها المتكلمون؛ للرد عليهم من جنس أدلتهم.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ)، مبينًا سبب إقبال المتكلمين على الأدلة العقلية، وأخذهم به في الاستدلال: «إنّما أرادوا وجهين: **أحدهما**: أن الأدلة العقلية وقعت في كتاب الله مختصرة بالفصاحة، مشارًا إليها بالبلاغة، مذكورًا في

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، (ص٨)، ت/ عبد المجيد تركي، ط/ دار الغرب الإسلامي، ط٣، ٢٠٠١م.

(٢) رسالة التوحيد، (ص٢٠).

مساقها الأصول، دون التوابع والمتعلقات من الفروع، فكمّل العلماء ذلك الاختصار، وعبروا عن تلك الإشارة بتتمة البيان، واستوفوا الفروع والمتعلقات بالإيراد.

الثاني: أنهم أرادوا أن يبصروا الملاحدة، ويعرفوا المبتدعة أن مجرد العقول التي يدعونها لأنفسهم، ويعتقدون أنها معيارهم، لا حظ لهم فيها، وزادوا ألفاظًا حرروها بينهم، وساقوها في سبيلهم، قصدًا للتقريب، ومشاركة لهم في ذلك من منازعتهم، حتى تبين لهم أنه كيف دارت الحال معهم من كلامهم بمنقول أو معقول، فإنهم فيه على غير تحصيل»[1].

أما أخذ بعض المتكلمين بطريقة الفلاسفة، واتباعهم للمنهج الفلسفي في بعض القضايا، فقد كان لضرورة علمية ومنهجية أيضًا؛ يقول الدكتور النشار: «وهذا العلم – فيما اعتقد – هو النتاج الخاص للمسلمين، وقد صدر هذا العلم، عن بناء المجتمع الإسلامي، وقد كان بالبعض منه نزوات حيوية، والبعض منه ثورات حيوية، ثم تكون البيان نهائياً، وصدر المسلمون فيه عن ذاتهم، ومما لا شك فيه أن المتكلمين، وقد كانوا في وسط فلسفي، وأمام هجمات فلسفية، من أديان مختلفة، وعقائد فلسفية متعددة، ومذاهب شرقية، منتشرة في البلاد التي فتحوها، قد أخذوا منها بعض الأفكار الجزئية، ولكن علم الكلام بقى في جوهره العام، حتى القرن الخامس، إسلامياً بحتاً، وبعد هذا شابته عناصر يونانية، ومزج بالعلوم الفلسفية.

ومما لا شك فيه أيضاً، أن متكلمي الإسلام، تكلموا في الميتافيزيقا، أو المسائل الميتافيزيقية، وفي هذا تنكب عن الفكرة العامة التي ينادى بها الإسلام، ولكن دعاهم

(١) قَانون التَّأويْل، القاضي أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله المعافري، (ص٥٠١، ٥٠٢)، ت/ محمّد السّليماني، ط/ دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة – جَدّة – مؤسَسَة عُلوم القرآن – بيروت – ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

إلى هذا حاجات ملحة، وأخطار كانت تهدد مجتمعهم، أهمها أن يردوا الهجوم، الذي قام به على الإسلام، آباء الكنيسة، إبان ذلك الوقت، وقد بدأ آباء الكنيسة منذ دخل المسلمون بلاد المسيحيين، يهاجمون الإسلام هجوماً عنيفاً، ويتكلمون عن (طبيعة المسيح) وعن (الكلمة) ومعنى تلك الطبيعة، في كتابات المسلمين أنفسهم، وسنرى في نطاق علم الكلام: المذاهب الفلسفية الكبرى، وعمل المسلمين الباهر في تفسير نشأة الكون، واكتشاف القوانين الوجودية، وتوصلهم إلى مفهوم للوجود، وللحركة، وللعلة، يخالف اليونان، ويسبقون به مفكري أوربا المحدثين، وفلاسفتها»[١].

أما من ناحية استخدام المتكلمين لبعض الألفاظ الفلسفية، مثل الجوهر والعرض، فإنه «ما من علم، إلا قد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم، فعلم التفسير، وعلم الحديث مثلاً، قد استحدثت فيهما مصطلحات لم يعرفها الصحابة، ثم هل يعد من المحظور معرفة الدليل على حدوث العالم، ووحدانية الخالق وصفاته؟، كيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها، والبحث عنها محظوراً؟»[٢].

فهذه الألفاظ قد استحدثت كما استحدثت قضايا ومسائل فلسفية، عج بها المجتمع في وقت من الأوقات، كما أن للمنهج الفلسفي والألفاظ الفلسفية فائدة أخرى، وهي الاطلاع على المذاهب، ومعرفة طرق الاحتجاج والرد على الفلاسفة، يقول العلامة ابن خلدون عن طريقة المتأخرين في خلط المسائل الكلامية بالفلسفة: «إلا أن هذه الطريقة، قد يعني بها بعض طلبه العلم، للاطلاع على المذاهب، والإغراق في معرفة الحجاج، لوفور ذلك فيها، وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو للطريقة القديمة للمتكلمين، وأصلها كتاب الإرشاد، وما حذا حذوه، ومن أراد

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (١/ ٥٤).

(٢) الثقافة والعقيدة الإسلامية، (ص٥١).

إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الغزالي، والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم، فليس فيها من الاختلاط في المسائل، والالتباس في الموضوع، ما في طريقة هؤلاء المتأخرين، من بعدهم»[١].

ومن هذا البيان يتضح لنا أن هناك أموراً خاصة بعلم الكلام، بعضها يذم، وبعضها يمدح، فالذين ذموه بإطلاق، ابتعدوا عن جادة الصواب؛ إذ فاتهم النظر إلى فائدته، وهى دحض شبه المبطلين، وإقامة الحجة على المخالفين، ومن مدحوه بإطلاق قد جانبهم الصواب أيضاً؛ لأنهم لم ينظروا إلى مساوئه، ولم يدعوا إلى إصلاحها؛ للاستفادة من محاسنه.

وفي هذا المعنى، يفصل الإمام الغزالي القول، فيعلن عن رأيه في علم الكلام، فيقول: اعلم أن الحق فيه، أن إطلاق القول بذمه في كل حال، أو بحمده في كل حال، خطأ، بل لابد فيه من تفصيل، فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته، كالخمر والميتة، فهما حرام، ولكن ليس في كل حال، فالخمر مثلاً تباح إذا غص الإنسان بلقمة، ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر، وتباح الميتة عند الاضطرار.. فعلم الكلام فيه منفعة، ومضرة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال، أو مندوب إليه، أو واجب، كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته، في وقت الاستضرار ومحله، حرام... أما مضرته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، وله ضرر آخر، في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة، وتثبيته في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب، الذي يثور من الجدل؛ وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد، وهو نوع فساد، أثاره المجادلون بالتعصب، فهذا ضرره..

---

(١) المقدمة (ص٤٣٠، ٤٣١).

وأما منفعته فهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام، وحفظها عن تشويشات المبتدعة، بأنواع الجدل، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع، وإن كان فاسداً، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه، والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم، وأجمع السلف الصالح عليها، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام، من تلبيسات المبتدعة، وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته، فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر، إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة، وعلى قدر الحاجة[1].

ونختم حديثنا في هذا المبحث، بما ذكره الإمام محمد عبده عن فضل هذا العلم، وغايته، والحث عليه، والقيام بما أمر به الدين على الوجه الصحيح، يقول الإمام: «والذي علينا اعتقاده، أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات، والقرآن شاهد على كلٍ بعمله، قاصر عليه في جوابه وخطئه.

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة الله ﷻ بصفاته الواجب ثبوتها، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين، الذي تطمئن به النفس، اعتماداً على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمرنا بالنظر، واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكي عن أحوال الأمم، في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم، وإمحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين، (ص٨٩، ٩٠).

في الحق، يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع، يحصل في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل بحال الإنسان»[١].

ولا يفوتنا هنا أن نبين أن علم الكلام كان حاجة ملحة من حاجات المجتمع الإسلامي، في وقت من الأوقات، ووجوده كان ضرورة عقائدية، في ظروف تطلبت ذلك، أما الآن فالحاجة إلي مسائله وقضاياه قليلة؛ لأن أسبابها تكاد تكون معدومة، وذلك منذ عهد كبير، وأقصد بعلم الكلام هنا: قضاياه المثارة في ذلك الزمان، أما الآن فلا يوجد داعٍ لإحياء هذه القضايا، ومناقشتها من جديد، إلا في مجال الدراسات النظرية والعقلية.

يقول ابن خلدون: «وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن العلم، الذي هو علم الكلام، غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة قد كفونا شأنهم، فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها، حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه... لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة؛ إذ لا يحسن بحامل السنة، الجهل بالحجاج النظرية على عقائدها»[٢].

وهنا لمحة ممتازة من ابن خلدون؛ إذ إنه لاحظ بحق أن من أهم أسباب وجود علم الكلام هو محاربة الإلحاد، وحيث انقرض الملحدة قلت وجه الحاجة إليه، وبردت

---

(١) رسالة التوحيد، (ص٢١، ٢٢).

(٢) المقدمة، (ص ٤٣١).

أسلحته الدفاعية – على حد قول أحد الباحثين[١] – فصار إلى تلك العزلة، ووصل إلى مرحلة الضعف في عصوره الأخيرة.

ولكن وبعد عودة موجة الإلحاد — مرة أخرى — عالية عاتية، وظهور أفكار وفلسفات وشبهات جديدة، بزغ من جديد وجه الحاجة إليه؛ فكان لا بد من قيام علم كلام جديد قائم على دعامتين أساسيتين:

الأولى: تبسيط عقائد الدين، وشرحها بأسلوب سلس موجز، يمثل الوسطية في الإسلام، يرى فيه المسلم حصنه المتين، ويجد فيه غير المسلم مفراً وملجأً، يستنير به، وسط دياجير الكفر والضلالات.

والثانية: الدفاع عن عرين الإسلام، ضد المستجدات، والشبهات التي تثار ضده، في عصرنا الحديث، بدلائل العقل، والعلم الحديث، وخصوصًا التجريبي منه؛ لما يتمتع به من نسبة يقين وقناعة، لا يستطيع المشككون في العقيدة إنكارها، إلى جانب ما حبانا به نور الفرقان، من لطائف الاستدلال، وطرق البرهان.

وسوف نرى في نهاية الدراسة أن علم الكلام قد اتخذ شكلًا جديدا في العصر الحاضر، بمسايرته وسائل العلم الحديث، واستشهاده بالعلوم التجريبية، والنظريات العلمية الصحيحة، والتي تثبت تؤيد بعض قضاياه أو على الأقل لا تتعارض مع ما توصل إليه المتكلمون الأوائل، وبخاصة الأشاعرة منهم.

وهذا ما سنتعرف عليه من خلال المبحث التالي:

---

(١) وهو الدكتور/ يحيى هاشم حسن فرغل في كتابه: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، (ص ٣٩٦، ٣٩٧)، ط/ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، السنة الخمسون، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م.

المبحث الثالث

الدور المعاصر لعلم الكلام ومجابهة القضايا الحديثة

اضطلع علماء الكلام قديمًا من أهل السنة بمهمة كبرى، وهى الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المخالفين، بإثبات الأصول المقرة في الإسلام، والرد على من خالف هذه الأصول، بالحجج والبراهين، ونظراً لهذه المهمة الخاصة، فقد تميز علم الكلام، وتميز منهجه عن غيره من المناهج، فنجد علم الكلام يرد على الانحرافات العقدية لدى اليهود والنصارى، والعقائد الشرقية، كالبرهمية والثنوية، بما فيها من زيف وضلال، وكذا الملاحدة.

واضطرتهم هذه المهمة إلى الدخول في حوار مع مخالفيهم من أرباب الملل والنحل والثقافات، مسلمين وغيرهم؛ لإقناعهم بعقائد الإسلام، أو دفع الشبه عنها، أو إقامة الحجة والبرهان عليهم، وهؤلاء متسلحون بالحجج العقلية والأقاويل الجدلية؛ ولذا لم يكن كافياً في حقهم الاعتماد على البراهين النقلية، فتسلح المتكلمون بنفس أسلحتهم؛ ليدافعوا عن عقيدتهم ضد خصومهم، وأكثروا من حكاية الأقوال والرد عليها[١].

وهذا المنهج أراه ضروريًا للدفاع عن قضايا العقيدة، على الرغم مما فيه من مثالب يمكن معالجتها بالالتزام بشيء من آداب البحث والمناظرة، مما جعل البعض يعد علم الكلام علماً إسلامياً، وإن كان فيه بعض مسائل الفلسفة اليونانية، على حين يرى البعض أنا لا نستطيع أن نسمى الفلسفة التي اشتغل بها «الكندي» و «الفارابي» و «ابن سينا» فلسفة إسلامية، إلا بقدر من التجوز[٢].

---

(١) ينظر: ضحى الإسلام، (١٦/٣، ١٧)، مدخل إلى دراسة الفكر الإسلامي، (ص٣١).

(٢) ينظر: ضحى الإسلام، (١٩/٣، ٢٠).

ومن هنا اعتبر بعض الباحثين[١] علم الكلام – إلى جانب أصول الفقه – الإبداع الفلسفي الحقيقي في الإسلام؛ لأنه علم إسلامي خالص.

وعلى الرغم مما أصاب هذا العلم في عصوره الأخيرة من ضعف وركود — إن جاز التعبير — بسبب الضعف العام الذي أصاب المسلمين، والتقليد في فروع العلم المختلفة، إلا أن الحاجة إليه اليوم أصبحت ضرورية كما كانت في القديم؛ فقد تجددت قضايا عقدية، واستحدثت مسائل كلامية، ارتبطت ببعض النظريات العلمية التجريبية الحديثة.

وقبل أن أعرض للمنهج الذي ينبغي لعلم الكلام سلوكه كي يحقق معنى المعاصرة، ومواكبته للقضايا الحديثة ومجابهته لها، أبرز **أهم الأسباب الداعية للتجديد والمعاصرة**:

١ — أن علم الكلام القديم لم يعد صالحًا بمناهجه ووسائله وأساليبه لمواجهة القضايا المعاصرة؛ لأنه بمعزل اليوم عن التيارات الثقافية والعلمية المعاصرة، وانحصر في قاعات الدرس بالمعاهد العلمية المتخصصة، وصار يردد قضاياه الأصلية القديمة، دون اعتناء كبير بالتيارات الحديثة، التي تموج في حياة المسلمين في العصر الحاضر، وهنا نجد أن المسلمين اليوم بحاجة إلى علم جديد يقوم بمهمة حراسة العقائد الإسلامية، على الوجه الذي قام به علم الكلام في عصر النشأة[٢].

---

(١) ينظر: مثلاً: النشار في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (١/١٧، ١٨، ٤٧، ٥٤).

(٢) ينظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، د. يحيى هاشم حسن فرغل (ص ٣٩٦).

«وذلك أن المجتمعات الإسلامية في الوقت الراهن تشبه إلى حد كبير المجتمع الإسلامي في طور نشأته، من حيث سرعة التغير وشدتها في كل منها، ومن حيث تعرض عقائد المسلمين لتناوش العقائد المناوئة، وهجمات المذاهب الهدامة»[(١)].

فلا بد من قيام علم كلام معاصر، يواجه التيارات والفلسفات الحديثة، التي استجدت على ساحة الفكر العالمي، ومحاربتهم بنفس الأسلحة التي يطعنون بها في دين الله، والرد عليهم بالوسيلة التي كانت سببًا في انحرافهم، فيكون ذلك أدعى لاقتناعهم؛ فلا شيء يمكن أن يقنع الإنسان أكثر مما كان يؤمن به سلفًا، بعد تصويبه وتوجيهه التوجيه الصحيح.

٢- ضعف الإبداع في علم الكلام، وغلبة الفتور والتقليد، والاكتفاء بإعادة العرض واجترار الماضي، فكان جل انتاجها شرحًا أو تلخيصًا أو نقدًا لمؤلفات السابقين، وقد ران هذا الجمود والتقوقع على الفكر الإسلامي بوجه عام خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وأكثر الثاني عشر، وساد هذه الفترة سيادة أسلوب الحواشي، والتقارير الملحقة بالمتون القديمة، وشروحها على المؤلفات الكلامية، التي لا تزال تدرس في الجامعات الدينية حتى اليوم[(٢)].

وقد كشف ذلك «عما أصاب علم الكلام من ضعف، وأبرزت الحاجة إلى ضرورة تجديده بما يعينه على تحقيق الغايات النبيلة، التي أدت إلى نشأته قديمًا، وبما

---

(١) مدخل نقدي لدراسة علم الكلام، د. محمد الأنور السنهوتي، (ص ٢٥٣)، ط/ دار الثقافة العربية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) ينظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام، د. حسن محمود الشافعي، (ص١٢٤)، ط/ مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٩١م.

يسمح – كذلك – بأن يستأنف مسيرته العلمية التي ينبغي أن تكون مواكبة لما أصاب الحياة من حوله من تطور وتجديد[١].

٣- أن من غايات علم الكلام قيادة مسيرة الحضارة الإسلامية في طريقها الإسلامي، وليس هناك من علم يتصدى لذلك غير هذا العلم؛ فعلم الفقه يعنى بالتشريعات، ويوم ينحرف الدين عن طريقه يصبح غير ذي جدوى، وعلم التفسير يتصدى لبيان أساسيات العقيدة كما وردت في القرآن الكريم بهدف إقناع الغير بها، وهي مهمة أساسية لعلم العقيدة، وكذا علم الحديث، مع ملاحظة قلة تناول علماء الحديث للرد على أهل البدع والزندقة.

أما علم الكلام فهو الذي يعني بأصول الدين وعقائده، وليس من شرط لصلاحيته للقيام بمهمة قيادة هذه الحضارة إلا أن يواجه بشجاعة مشكلات هذا العصر في كل ما له صلة بأصول الدين[٢].

٤- طبيعة الإسلام التي تدعو إلى التجديد؛ فقد جاء لهداية الناس جميعًا، من لدن بعثات الرسل إلى قيام الساعة، وقد حفظ الله ﷻ هذا الدين إلى قيام الساعة، فمن الضروري أن يتجدد بذاته لمسايرة قضايا كل عصر، وهذا ما بينه لنا نبينا ﷺ بقوله

---

(١) التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢١٥)، ضمن موسوعة العقيدة الإسلامية، إشراف وتقديم: د. محمود حمدي زقزوق، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) ينظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، د. يحيى هاشم حسن فرغل (ص٣٩١، ٣٩٢).

الواضح الجلي: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ على رَأْسِ كل مِائَةِ سَنَةٍ من يُجَدِّدُ لها دِينَهَا))[١].

وهذا التجديد لا يكون في الأصول الثابتة، وإنما في الفروع اللينة القابلة للتطور والتجديد؛ «فمن شأن الإسلام أن يبعث على التطور دون أن يتطور هو بحد ذاته؛ أي في مقدار ما يكون المسلمون أمناء على الإسلام وأحكامه، لا يعبثون بها، ولا يغيرون منه؛ فإنه يدفع إلى مراقي التقدم والتطور دون توقف، وبمقدار ما يتلاعبون به، ويستبدلون بشرائعه وأحكامه، تنبعث فيهم عوامل التخلف والركود»[٢].

إن حقيقة رسالة الإسلام – كبيان من الله – تتخطى حدود الزمان والمكان، وتبرهن على مسلمة التجديد، وهي إن لم تكن هي والإسلام وجهان لعملة واحدة، فإنها – على أقل تقدير – تمثل إحدى مقوماته الذاتية، إذا تحققت تحقق الإسلام نظامًا فاعلًا في دنيا الناس، وإذا تجمدت تجمد وانسحب من مسرح الحياة، والإسلام في أزهى عصوره يشهد على هذه العلاقة التي لا تنفصم بين التجديد وحيوية الإسلام، وكذلك على العلاقة بين الجمود وانوائه إلى ركن قصي عن الحياة وعن المجتمع[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٥٩٢)، (٥٦٧/٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، برقم: (٤٢٩١)، (١٠٩/٤)، وسنده صحيح، ينظر: كنز العمال، (٨٨/١٢).

(٢) الإسلام بين التجديد المطلوب والتبديد المرفوض، د. محمد سعيد رمضان البوطي، (ص١٦٦، ١٦٧)، مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: ضرورة التجديد، د. أحمد الطيب، (ص١٤١، ١٤٢)، مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.

٥- تعرض عقائد المسلمين في هذا العصر لموجات إلحادية خطيرة؛ ففي الفلسفات الحديثة والمعاصرة ظهرت المادية الجدلية، والبرجماتية، والوضعية، والوجودية، وبها دعوات صريحة للإلحاد.

وفي المنهج العلمي نسجت أوهام من الإلحاد بإنكار كل ما لا يخضع للتجربة، وباسم التطور الذاتي، وحتمية القوانين الطبيعية التي تسير الطبيعة بذاتها.

وفي التنظيم الاجتماعي سحابات من الإلحاد، تنكر الدين، وتعده طورًا متخلفًا من أطوار التقدم الاجتماعي، وقطع علاقته بالسياسة والاقتصاد والأخلاق.

ومهاجمة قضايا التشريع، كالرق، وتعدد الزوجات، وقوامة الرجل على المرأة، وتوزيع الميراث، والحدود، وكذا التاريخ الإسلامي الذي يصور على أنه مجرد صراع بين الطبقات، وفي أساليب التربية التي تنحو نحو الحرية المطلقة، وخصوصًا الجنسية منها.

وحتى في بعض البحوث التي يكتبها مسلمون وتنسب للإسلام تطلعات إلحادية تنكر دور السنة في التشريع، وتقديم القصص القرآني على أنه فن روائي خيالي لا يعبر عن الواقع.

وفي التسوية بين الأديان، وظهور ما يسمى بالدين الإنساني؛ حيث يسوي بينها في الإيمان بالله.

في كل هذه المجالات دعوات إلحادية تقف وراءها هذه منظمات ومؤسسات وقوى دولية، تتسم بالضراوة والتنظيم الدقيق الممنهج، والكراهية العميقة للإسلام خاصة[١].

---

(١) ينظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، د. يحيى هاشم حسن فرغل (ص ٣٩٤: ٣٩٦).

فمن لهذه الدعوات الحديثة إلى علم حديث يجابهها وينقضها على أصحابها حجرًا حجرًا؟

٦- ظهور قضايا معاصرة موجودة بقوة على الساحة العالمية، مثل قضايا الأقليات، والحريات العامة، والعولمة، والحداثة، وتنظيم العلاقات الدولية، والتطرف والغلو، وعبادة الشيطان، وظاهرة الإيمو(١)، والإرهاب، وتغليب الآراء الشاذة... الخ.

كل هذه القضايا لا بد أن يستوعبها علم الكلام المعاصر، ويواجهها بأسلوب عصري حديث.

٧- إيضاح المسائل العقدية، وخصوصا الغيبية منها، التي جاء بها الوحي الإلهي، وبيان أنها لا تتعارض مع القواعد والنظريات العلمية الحديثة، بل على العكس؛ فهي تقوم بدور إيجابي في العصر الحديث بإثبات بعض القضايا التي كانت محل خلاف بين الفلاسفة والمتكلمين قديمًا، مثل قضية قدم العالم وحدوثه، وهي قضية مفصلية على مر الدهور والعصور، في أهم مسألة من مسائل علم الكلام، وهي مسألة وجود الله؛ فالقول بقدم العالم يخدم الدهرية والملاحدة، أما القول بحدوثه وإثباته عن طريق العلم التجريبي الحديث ونظرياته الثابتة، يغلق الباب أمامهم، ويصيبهم بصدمة علمية لا يستطيعون الفكاك من نتائجها المزعجة بالنسبة لهم، كما أن هناك إشارات في بعض النظريات العلمية الحديثة لجانبي النبوات والسمعيات.

(١) ينظر: نحو منهج جديد في العلوم الإسلامية: علم العقيدة بين الواقع والمأمول، د. نظير محمد النظير عياد، (ص ٦٨)، حولية مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق، العدد الثالث عشر، المجلد الأول، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

وهنا تكمن أهمية علم الكلام المعاصر ودوره في نقض أهم سند للملاحدة في إنكارهم لوجود الله، وهو قدم العالم؛ ولذا سوف نتناول منهج دراسة هذه القضايا من المنظور الحديث، مع ضرب أمثلة ونماذج لذلك، والدور الذي يمكن لعلم الكلام حديثًا أن يضطلع به.

والحقيقة إن في الأمر متسعًا لقيام علم كلام إسلامي جديد، يدافع عن الدين ضد القضايا المستحدثة، التي يثيرها بين الحين والآخر المستشرقون، والمشككون في الدين، وضعاف الإيمان، والذين في قلوبهم مرض، فينبغي معرفة أساليب هؤلاء، وأسلحتهم ومواجهتهم، والرد عليهم بنفس أسلحتهم[1].

ولكن وقبل بيان هذا الدور ينبغي الإشارة إلى أن الدعوة إلى علم كلام معاصر جديد، لا تعني القيام بأي تغيير في قضايا أصول الدين؛ فقضايا العقيدة الأساسية تمثل أصولًا وثوابت لا اجتهاد فيها في كل زمان ومكان، والاقتراب منها بدعوى التجديد إنما هو تحريف وتبديد وليس تجديدًا، والتجديد هنا يكون بمعنى سوق الأدلة على العقائد الصحيحة، ونقض شبهات العقائد الباطلة، من منظور يتلاءم مع مقتضيات التغير في الزمان والمكان، والروح العامة التي ينظر بها إلى الأديان[2].

---

(١) أشار فضيلة الإمام الأكبر عبدالحليم محمود إلى هذه القضية إشارة بينة، وعقد فصلاً كاملاً في كتابه: «الإسلام والعقل» عن (علم الكلام فيما ينبغي أن يكون) وركز على قضايا ثلاث، وهى: ١- قضية النبوة وطرق إثباتها . ٢- إثبات الدعوة الإسلامية.
٣- بيان ما يجب أن يكون عليه الداعية.

(٢) ينظر: العقيدة الإسلامية في الواقع المعاصر في إطار التجديد وضوابطه، د. محمد عبد الستار نصار، (ص ١١٢٨، ١١٢٩)، ضمن أبحاث مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.

فعلم الكلام من حيث الغرض والغاية (وهو حفظ العقيدة ورد الشبه) لا تجديد ولا تغيير فيه، وإنما يقع التجديد في مسائله وموضوعاته، ومناهجه، ووسائله وأساليبه، وليس في ثوابت العقيدة ذاتها.

منهج التجديد في علم الكلام:

إننا نعيش اليوم عصر التقدم العلمي المتلاحق، وكل كشف علمي يجب استغلاله في تدعيم الإيمان بالغيب، وحسبانه فتحًا جديدًا للروح؛ وذلك لأن القوانين العلمية هي السنن الإلهية التي يحكم الحق بها حركة الكون، وقد أحدث القرآن الكريم بمنهجية فريدة ترابطًا وثيقًا بين الإنسان والكون، والإنسان ونفسه، وجعل من النظر في الآفاق والأنفس آيات تتجلى فيها عظمة الخالق، وهذا يؤكد أن الكشوف العلمية – في حقيقة الأمر — تقوي الإيمان، وتدعم اليقين، وهذا هو الاتجاه الصحيح في العلاقة بين العلم والدين.

إن أسلافنا من علماء العقيدة قد استخدموا في تقريرها والدفاع عنها جميع الوسائل الممكنة النظري منها والعملي، التي توفرت لهم في ذلك الوقت، وقد حملتهم طبيعة المواجهة إلى معرفة ما عند الخصوم[١]، فأثرت فيهم طريقتهم وأسلحتهم الهجومية؛ فاضطروا إلى ردها عليهم؛ مما جعلهم يستخدمون كثيرًا من مباحث المنطق والفلسفة، فبعدت بهم عن الغرض الأساسي لعلم الكلام، وهو إيضاح العقيدة والدفاع عنها بإقامة الأدلة النقيلة والعقلية، ورد الشبه عنها.

---

(١) ينظر: المدخل إلى دراسة العقيدة والأديان، د. محمد عبد الستار نصار، د. عائشة يوسف المناعي، (ص ٨٠)، الناشر: مكتبي للطباعة والكمبيوتر — طنطا — ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

أما اليوم فيحتاج علم الكلام إلى منهج جديد يواكب العصر، ويتعرف على قضاياه، ويرد على المخالفين بنفس الأسلحة العصرية، والتي ظن أصحابها أنها كافية للدلالة على صحة توجههم، وإنكارهم لحقائق الدين.

ويتمثل هذا المنهج في جانبين: جانب سلبي وجانب إيجابي:

أولًا: الجانب السلبي

لا بد من تجاوز السلبيات التي أصابت علم الكلام القديم، ومنها:

١ – استخدام المنهج الجدلي العقيم، الذي كثيرًا ما أدى إلى إثارة الشبه والشكوك، دون أن يفضي إلى الإقناع واليقين[١]؛ «فكثير من المتكلمين قل لديهم الاعتماد على الأدلة القرآنية الشرعية في إثباتهم للعقائد الدينية، وربما كان هناك ما يسوغ لهم ذلك في جدالهم مع غير المسلمين؛ لأن هؤلاء لا يؤمنون بالإسلام، الذي تستقي من مصادره تلك الأدلة الشرعية، لكن الأمر سار على النهج نفسه في جدالهم بعضهم مع بعض، ومن ثم وجدناهم يعتمدون في إثباتهم لأصول العقيدة على أدلة ذات أصول فلسفية، كدليل الجوهر الفرد، ودليل الممكن والواجب، ودليل التناهي، وغيرها من الأدلة، بل إن بعض الفرق الكلامية كالمعتزلة – مثلًا- عزلت الدليل الشرعي عن أن يكون دليلًا معتمدًا في أصول العقائد، كالإيمان بالله تعالى، وإثبات النبوة»[٢].

لقد أكثر المتكلمون في مقدمات مؤلفاتهم العقدية من الحديث عن ألفاظ غامضة، يكثر الخلاف حولها، كالكلام في الجواهر والأعراض، والجزء الذي لا يتجزأ، والمكان والزمان...، وهو ما يطلق عليه الأمور العامة، التي ربما فاقت – في بعض

(١) ينظر: مدخل نقدي لعلم الكلام، د. محمود السنهوتي، (ص٢٥٥).

(٢) التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢١٣).

المؤلفات – من حيث الكمية الحديث عن العقائد أنفسها[1]، حتى إن الإمام الغزالي نفسه انتقد المتكلمين في استدلالهم على وجود الله بدليل الجواهر والأعراض، وقلة الاعتماد على آيات القرآن الكريم – وهي قريبة من خمسمائة آية – وبين أن «ذكر هذه التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية تشوش قلوب العوام، والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام على ما في القرآن، تقنعهم وتسكن نفوسهم، وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة»[2]

٢ – الانشغال عن مواجهة الخصوم الخارجين عن الملة، بالخصومات الداخلية؛ مما أدى إلى انقسام المتكلمين إلى فرق وطوائف متناحرة متحاربة، ووصل الأمر إلى حد التكفير[3].

فالفرق الإسلامية قد انغلقت على ذواتها، وانعزل بعضها عن بعض، وصار كل حزب بما لديهم فرحين، واعتقدت كل فرقة أنها على الحق المبين، ومن ثم تفشى فيهم داء التعصب الممقوت للرأي، والتعصب الأعمى لشيوخ المذهب، ولا شك أن هذا المنهج يؤدي بصاحبه إلى جمود العقل، وشلل الفكر، وهجران الحق إذا لم يوافق الهوى والغرض، وفي هذا من السفه والجهالة والبعد عن الصواب ما فيه[4].

٣- الاقتصار على الجانب النظري دون العملي منه، والتركيز على الجانب العقلي دون الجانب الوجداني والسلوكي، وبيان أثر العقيدة في نفوس المسلمين، والتفعيل الواقعي لها في جانب حياة الناس؛ فالمتكلمون قديمًا أدخلوا في الاستدلال على قضايا

---

(١) نرى ذلك واضحا في كتابي شرح المواقف للإيجي، وشرح المقاصد للتفتازاني.

(٢) إلجام العوام عن علم الكلام، (ص٩١).

(٣) ينظر: التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢١٠).

(٤) ينظر: مدخل نقدي لعلم الكلام، د. محمود السنهوتي، (ص٢٤٤، ٢٤٥).

علم الكلام مصطلحات الفلسفة وأسلوبها، وهذا الأسلوب لا يورث الإذعان في القلوب؛ فلإن كان الغلو في القياس والاستدلال قد أفاد العقول جدة ونشاطًا، فقد أفقد القلوب إيمانًا وحرارة، فاستطاع المتكلمون بقوة استدلالهم وبراعتهم في المناظرة أن يقطعوا لسان المعترضين، ويفحموا المجادلين، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا في القلوب سكينة وإيمانا، وفي أهل الشك يقينًا وإذعانًا[١].

فقليلًا ما نجد في كتاب من كتب علم الكلام القديم متكلمًا يوجهنا إلى الآثار المترتبة على الفرد والجماعة من مبدأ الوحدانية، فالمتكلم غالبًا ما يبحث عقلًا أو نقلًا هذه الوحدانية، أما ما يعنيه هذا التوحيد للمؤمن في حياته اليومية فلا يتعرض له[٢].

لقد خلقت مناهج بحثهم وأساليبهم في الاستدلال عُقدًا في القلوب والعقول، عجز علم الكلام عن حلها وفكها، واستخف علم الكلام وأصحابه بالوجدان، الذي هو منبع فياض للعلم واليقين، فنضب معينه؛ وذلك لأنه ابتعد عن أسلوب القرآن الطبيعي، ولم يكن له سحر في النفوس، ولا إقناع كإقناع القرآن، فهذه المقدمات والدلائل الفلسفية كانت مثار بحث وجدال كبير، لا تفيد العلم القطعي؛ ولذا كانت دائمًا عرضة للنقض والرد[٣].

والواقع أن علم الكلام الكلاسيكي الذي خاض معارك مجيدة في وجه خصوم الإسلام، وحفظ للعقيدة الإسلامية تماسكها وصرامتها المنطقية، وأصولها الراسخة، كان

---

(١) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن علي الحسني الندوي، (١/٢٠٤)، ط/ دار ابن كثير – دمشق – بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، فهمي جدعان، (ص١٨٧)، ط/ دار المشرق – عمان – ط٣، ١٩٨٨م.

(٣) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن علي الحسني الندوي، (١/٣٧٠).

عاجزًا في صورته المجردة الممنطقة عن أن يقوم بدور حيوي فعال في الحياة الزمنية والروحية للمسلم(١).

٤- الغلو في الاعتماد على العقل كمستند رئيس لإثبات العقائد، والاقتصار في إقامة الأدلة عليه، دون الدليل النقلي، وخصوصًا في المسائل الغيبية، وليس العيب فيه بالضرورة، فهو ميزان صحيح، ولكن ينبغي مراعاة ما يوزن به، هو كما قال ابن خلدون: «أحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك. وإذا تبين ذلك، فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا، خرجت عن أن تكون مدركة، فيضل العقل في بيداء الأوهام، ويحار وينقطع... وهذا معنى ما نقل عن بعض الصديقين: العجز عن الإدراك إدراك»(٢).

٥- اعتماده على المنطق الأرسطي في كثير من مسائله، وهو منطق لا يهتم بصلة الفكر بالواقع، بل كل ما يهمه اتساق الفكر مع ذاته، وبناءً على ذلك زحف الجدل حول مسائل مطروحة، ليقطع خيوط التواصل بين العقيدة والحياة؛ فعقيدة التوحيد التي

---

(١) ينظر: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، فهمي جدعان، (ص١٩٣، ١٩٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون، (ص٤٦٠).

يعيشها الإنسان المؤمن في بدايات البعثة، ممارسة حياتية تطبع سلوكه وأخلاقه، ولكنها صارت – فيما بعد – تدور في مدارات عقلية، بعيدة عن هموم الحياة[(١)].

فهو منطق جاف لا يهتم إلا بالشكل والصورة على حساب الواقع؛ فيمكن للمجادل أن يستعين به على إثبات قضية يعلم أنها كاذبة، ولكنها سليمة الصورة، مما يساعد على الشك أكثر مما يزيد في اليقين.

وينبغي التنبيه إلى أننا ننظر إلى هذه الأمور في علم الكلام اليوم كجانب سلبي، والحقيقة أن بعضها ليس كذلك في حقيقة الأمر؛ فإنه كان في وقته مطلوبًا، مثل الحديث عن المقدمات المنطقية والجانب النظري؛ فإنها كانت لازمة في وقتهم لكثرة اعتماد المخالف عليها، أما اليوم فلهم اعتماد على الناحية العملية أكثر من النظرية، والتركيز على المنهج التجريبي أكثر من العقلي؛ ولذا يجب تجنب ما كان متوافقًا مع العصور القديمة، عند الحديث عن إقامة علم كلام جديد يتوافق مع العصر الحالي، فلكل عصر خصائصه وتوجهاته ونظراته، ويجب على علماء اليوم التنبه إلى سلاح الغير، كما تنبه الأقدمون، فنقيم عليهم الحجة من جنس ما يألفون، كما فعل أسلافنا من قبل.

وإذا كان هذا جانبًا سلبيًا يمثل هدمًا لما كان عليه القدماء، فإن ذلك ليس مطلوبًا في ذاته، وإنما لوضع أسس جديدة، تمثل الجانب المنهجي الإيجابي في إقامة صرح علم الكلام المعاصر.

---

(١) ينظر: إشكاليات التجديد، د. ماجد الغرباوي، (ص٣٧)، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الناشر: دار الهادي – بيروت – ط١، ٢٠٠١م.

ثانيًا الجانب الإيجابي

كان ما سبق هو الجانب السلبي الذي يجب تجاوزه عند الحديث عن علم كلام معاصر، فالهدم قبل البناء، ولسنا نريد بهذا أن ندعو إلى عدم دراسة علم التوحيد، ذلك بعيد أن يدور منا بالبال، بل المراد أن ندلل على وجوب تطور هذا العلم بوجه عام، وذلك بأن نجدد في كتبه وأدلته ومشاكله، وفي الفرق التي يرد عليها، وحينئذ يكون أداة منها، أداة يكون منها خير كثير في تثبيت عقائد الدين، وهداية الضالين[١].

وهذا البناء الجديد يسير على المنهج الآتي:

١ – أن يكون التجديد في الفكر الديني، والعلم الذي يدعمه، وليس العقيدة نفسها؛ فإنها لا تجدد، ولكن الذي يجدد هو استحداث الأدلة لما يستجد من قضايا، مع بقاء الأصل الثابت على قاعدته، لا يتغير ولا يتبدل، فالمقصود بالتجديد العقدي «أن يتحول العلم في أضلاعه المختلفة، ويبقى ملاك الوحدة بين مسائله، على حاله دون تغير، ، وكذلك مناط تميزه عن سائر العلوم، إن التحول التكاملي يعني أن يتكامل الشيء ويظهر في صورة جديدة، مع الاحتفاظ بمشتركات معينة مع القديم، ما يعني بقاء المِلاك الذي يوحد بين المسائل، ويميز العلم عن باقي العلوم؛ فلا يحصل نتيجة التجديد في أهم الأضلاع المعرفية للعلم انقلابًا ماهويًا فيه، بل يحتفظ العلم بعناصره الأساسية، المكونة لتعريفه وهويته»[٢].

---

(١) ينظر: مقدمة كتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجويني، د. محمد يوسف موسى، علي عبد المنعم عبد الحميد، (ص: ش، ط) ط/ مكتبة الخانجي – مصر – ط٣، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) جولة في كتاب الهندسة المعرفية للكلام الجديد، د. أحمد فراملكي، (ص٢٢)، نشر بواسطة: حسن يحيى، يناير ٢٠١١م.

«إن مشكلتنا تكمن في كيفية فهم أصول العقيدة على ضوء حياتنا المعاصرة، ينبغي أن يتصدى لها المهتمون بأمور العقيدة، فنحن لا نستطيع أن نغض الطرف عن الهندسة الوراثية، والاستنساخ، وعن دور المرأة المسلمة، وعن علاقة التكنولوجيا بالدين، نحن في حاجة إلى فقه جديد يساير التطور العلمي، ويسهل للناس حياتهم، نحن في حاجة إلى فقه يوضح للمسلمين كيف يعيشون في غير ديار المسلمين؟ كيف يمكن أن يحيوا بينهم ومعهم دون أن يفرطوا في عقيدتهم»[١].

فالتجديد الذي نقصده له أهداف ومقاصد جديدة، فرضتها تحديات جديدة لم تكن موجودة في القرون الأولى، مثل النهوض بالآخر، والعلاقة به، وتراجع العالم الإسلامي، وعوامل صعود الفلسفات المادية، والمذاهب الوضعية، وثقافة الحداثة، وتفكيك وعدمية ما بعد الحداثة، والتخلف الذاتي الموروث عن حقب التراجع الحضاري في مسيرة الأمة الإسلامية[٢].

إن التجديد الكلامي الذي نرمي إليه لا بد أن يميز بين الثابت والتغير، بين العقيدة والعلم، بين الإلهي والوضعي، بين معطيات الوحي ومنتجات العقل؛ فالتجديد ينصب على الثاني دون الأول، باعتباره حقائق أزلية ثابتة مقدسة، تتميز بربانية

---

(١) دور العقيدة في حياة الإنسان المعاصر، مقال بعنوان: "نحو قراءة جديدة لعلم الكلام، د. فيصل بدير عون، (ص٧٢٤، ٧٢٥)، كتاب المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة –١٤١٩هـ – ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: الاجتهاد الكلامي، مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد، عبد الجبار الرافاعي، (ص١٢٥)، ط/ دار الهادي – بيروت – ٢٠٠٢م.

المصدر، وتتوقف على إذن الشارع[١].

فالمسلم يجب عليه أن يميل بكل شيء في حياته إلى أصل ثابت لا يتغير، يحفظه من التلاشي والضياع، ولا يحاول أبدًا أن يلوي عنقه ليتوافق مع هواه وظنه.

٢- التجديد في لغة الخطاب، وأساليب التأليف، ومنطق الترتيب للأبواب والمسائل والمقالات، وتحلي علم الكلام الجديد بالبلاغة التي تراعي مقتضى حال العقل المعاصر، إن في الموضوعات أو أساليب التعبير والخطاب، أو هندسة البناء المفاهيمي والمعرفي لأدبيات هذا الطور الجديد في الكلام[٢].

فيتم التعريف بالعقائد الإسلامية، والبرهنة على صحتها، والرد على المخالفين لها بلغة ميسرة، تتسم بالوضوح والسهولة، والبعد عن التعقيدات اللغوية، والمصطلحات الغريبة الصعبة، وبخاصة تلك المجلوبة من فلسفات وثقافات أجنبية، والاستعانة ببراهين واضحة مقنعى، تستند إلى الأدلة الشرعية، والبراهين العقلية الصحيحة الواضحة[٣].

فالتجديد الكلامي يجب أن يكون شاملًا لكل أجزاء العلم المعرفية، من مسائل، ووسائل وأساليب، ومناهج، ولغة، وأهداف، وكل ذلك تجاوبًا مع عناصر الظروف

---

(١) ينظر: نحو منهج جديد في العلوم الإسلامية، علم العقيدة بين الواقع والمأمول، د. نظير محمد عياد، (ص٨٣).

(٢) ينظر: الاجتهاد الكلامي، مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد، عبد الجبار الرفاعي، (ص١٢٦).

(٣) ينظر: التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢١٩، ١٢٢٠).

المتغيرة، واختلاف الزمان، والقضايا والمشكلات، وبدون مراعاة هذه الأمور يصبح تجديد علم العقيدة أمرًا صعب المنال، وبناء غير متكامل الأركان[١].

٣- متابعة الشبهات الحديثة حول العقيدة الإسلامية، وتسلحها بسلاح العلم التجريبي الحديث، وما قد يكون في ذلك من تزييف للحقائق؛ فإن كثيرًا من دعاوى الإلحاد اليوم تقوم على دلائل ظنية، ودعاوى زائفة، وتعلق بأوهام تدال على الزيغ والجهل بالحقائق الكبرى، التي لا يمكن أن يجد العقل الإنساني مناصًا من التعرض لها، والتحدث فيها؛ ولذلك لا بد من التفكير في الطريقة والكيفية التي تساعد على إحقاق الحق وإبطال الباطل بالحجة والبرهان، ليس فقط على المنهج التقليدي المأثور، بل على أحسن ما تحقق في التراث الكلامي النفيس، بل مع الأخذ بالمناهج الجديدة، خصوصًا في مجال العلوم الحديثة، العقلية والكونية والاجتماعية[٢].

ويقتضي تحقيق ذلك تطويرًا في الأدلة والوسائل؛ فلا يمكن مواجهة مقولات الماديين والملحدين، ودعاوى المستشرقين، وآراء الماركسيين والوجوديين والعلمانيين والعولميين، ومقالات الحداثيين وما بعد الحداثيين وأمثالهم بنظريات الجوهر الفرد، ودليل الممكن والواجب، والطبيعيات القديمة الموروثة عن اليونان، بل لا بد مواجهة الآراء والمذاهب المعاصرة بلغة معاصرة، وطرق متطورة، تلائم هذه الأفكار وتناسبها[٣].

---

(١) ينظر: نحو منهج جديد في العلوم الإسلامية، علم العقيدة بين الواقع والمأمول، د. نظير محمد عياد، (ص٨٠).

(٢) ينظر: خطة مقترحة لتجديد علم الكلام، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، (ص٦٠٤)، حققه وقدم له: د. فيصل بدير عون، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١١م.

(٣) ينظر: التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢٢٠).

٤- حسن التمييز بين العناصر المفيدة التي يفيد منها علم الكلام، والعناصر أو القضايا الأخرى التي لا يمكن الأخذ بها، فالمسلم يتميز بأصالته، وعدم تماهيه مع مجريات العصر كيفما هي، وبالتالي فإن «المسلم بأصالته الإسلامية، وسط هذا الركام يتفاعل معه؛ فلا يقصر بالأخذ بما يقتضيه عصره من تقدم مادي، حتى لا يكون تابعا لغيره فيما يتعلق بشئون حياته؛ فالتبعية لا تنسجم مع الأصالة، والمعاصرة انطلاق بالأصالة والبناء الذاتي لمحاورة الأفكار المعاصرة؛ فإن وجد منها ما ينفع أخذه وجعله منه "فالحكمة ضالة المؤمن" إنه يأخذها إليه لتكون منه، لا ليكون منها، وإن وجد منها ما لا يستقيم، بين فسادها حتى يامن الناس شرها، فالمعاصرة إيجابية، تفاعل بالأصالة وأخذ وعطاء بوعي وفطنة، لا يؤخذ منها ما يفسد، ولا يترك ما ينفع؛ ولذلك فإن المعاصرة لا تكون بغير أصالة، وإن وجد في عصر من العصور معاصرة بغير أصالة، كانت أهواء ومفاسد، تنخر في عصرها»(١).

٥- نبذ التعصب المذهبي وأسباب الفرقة والاختلاف، التي تخدم الخصوم، وتضعف المواجهة بينهم؛ فلن يتمكن علماء الكلام والعقيدة من تحقيق مواجهة ناجحة لكل القضايا التي يتصدون لها، والآثار المترتبة عليها، وهم ينتسبون إلى عصبيات قديمة: اعتزالية وأشعرية وماتريدية وسلفية.. الخ، بل لا بد أن يعملوا على تكوين جبهة واحدة، تعمل على تحقيق غاية كبرى، هي الدفاع عن الإسلام وعقيدته، وهي غاية تنبغي أن تكون سابقة ومقدمة على نصرة الانتماءات الضيقة، والعصبيات

---

(١) الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي، د. محمد رأفت سعيد، (ص٩)، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

القديمة، حتى وإن تمسك بها أصحابها[1].

فجل الخلافات التي حدثت بين هذه الفرق في جوانب العقيدة، إنما هي خلافات فرعية، وليست من الأصول في شيء، ولذا يجب التعاون بينهم فيما اتفقوا فيه من أصول وفروع، ويعذر بعضهم بعضًا فيما اختلفوا فيه من مسائل فرعية، فالغاية التي يسعون إليها جميعًا أهم وأسمى من أي انتصار وهمي، فهي معركة داخلية بين المنتسبين إلى أهل السنة، الكل مهزوم، مهما بدا من تفوق أحدهم على آخر.

٦- مراعاة الجانب النفسي والوجداني في مخاطبة المخالفين، ومراعاة ذلك في إقامة الدلة؛ فلا يهم كثيرًا إفحام الخصوم، وقطع ألسنة المعارضين بقوة الاستدلال، وبراعة الاستنباط، بل لا بد مع ذلك من مخاطبة القلوب بما يمس شغافها، ويورثها سكينة وطمأنينة.

«فالإيمان ليس نتاج العقل فقط، بل إنه نتاج طاقات الإنسان كلها، والعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان: الوجدانية والإرادية والعقلية، ولكنها تتصل بها اتصالًا وثيقًا، ولا ترضى نفس المرء ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ونواحيه النفسية كلها، وعملت معًا على تقبل كل عقيدة من عقائده، فيوجد قبول عقلي واطمئنان قلبي، والتقاء مع الإرادة»[2].

وبالجملة: استلهام طريقة القرآن الكريم في مخاطبة العقول والقلوب والحواس وملكات الإنسان المختلفة حتى لا يؤتى من أحدها، ولا يجد في نفسه تعارضًا أو

---

(١) التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، (ص١٢٢٢)، قارن: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام، د. يحيى هاشم فرغل، (ص٣٩٩).

(٢) المرجع السابق، (ص١٢١٢).

تناقضًا بين عقله وعاطفته وفطرته، بل يكون الانسجام والتوافق بين ملكاته هو الغالب عليه؛ حتى تملك عليه نفسه من جميع جوانبها.

بالإضافة إلى تحول الدليل والحجة النظرية إلى عمل «إن علم العقيدة الذي نسعى إليه ينتقل من إفطار النظري إلى الواقع العملي، باعتبار أن الاعتقاد النظري ما لم يتحول على يد صاحبه إلى سلوك عملي، فلا فائدة منه، ولا حاجة إليه، ومن هنا نؤكد على أن علم الكلام المراد هو ذلك العلم الذي يتجاوز الأدلة الجدلية، والحجج المنطقية، والأساليب الفلسفية، والمصطلحات الغامضة، لينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، فينقيها ويهذبها، ويرقي سلوكها، ويمنع من شطحاتها»[١].

٧- توجيه عناية أكبر إلى دراسة مسائل العقيدة، كما وردت بالكتاب والسنة، يستوحى فيها النص في بساطة، بعيدة عن تعقيدات المذاهب التي فرضتها ظروف ثقافية، ربما كان عصرًا منصرفًا عنها، وتوجيه عناية أكبر إلى الاستدلال على العقائد عن طريق دراسة شخصية الرسول ﷺ وبخاصة فيما يتصل بالأمور التي كان يرغب فيها، خالف فيها الوحي رغبته، أو ما كان يميل إليه، وذلك لدلالة على المصدر الإلهي للقرآن الكريم[٢].

إننا إذا تجنبنا الجوانب السلبية في علم الكلام القديم، واتخذنا هذا المنهج الذي يلائم العصر الحديث، بظروفه وتطلعاته، ومبادئه العلمية ونظرياته، وجنوحه العلمي وشطحاته، أمكننا أن نعيد لهذه الأمة صلابتها ويقينها القديم، والذي كان يقوم على شواهد القرآن الكريم، وأوامره بالنظر في الأنفس والآفاق، وتضييق الخناق على أهل

---

(١) ينظر: نحو منهج جديد في العلوم الإسلامية، علم العقيدة بين الواقع والمأمول، د. نظير محمد عياد، (ص٨٧).

(٢) ينظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام، د. يحيى هاشم فرغل، (ص٤٠٠).

الزيغ والضلال، وأصحاب الشبهات والانحلال، ومواجهة أمواج الإلحاد المتلاطمة، وذلك بالمعرفة الجادة العميقة بما يدور على الساحة العالمية من أفكار وتوجهات، وبما اكتشفه العلماء من مكتشفات تصب في صالح عقيدة التوحيد، والتي غلب على ظن بعض أصحابها والمؤيدين لها أنها تخدم مدعاهم الناقض للعقائد الدينية؛ فعندئذ يستطيع علماء العقيدة اليوم – كما استطاع أسلافهم – من مواجهة هذا الجديد بالجديد، ورد نصال أسلحة الخصم في نحورهم.

وفي المبحث التالي نورد بعض الأمثلة والشواهد على ما يمكن لعلم الكلام فعله تجاه بعض النظريات والمكتشفات العلمية الحديثة، وكيف يمكنه أن يتخذ من هذه النظريات حججًا علمية وعملية على أن دين الإسلام وعقيدته هي الصدق نفسه، والصحة ذاتها، وأنه دين الفطرة السوية، التي ينسجم فيها الإنسان مع الكون في نسق إلهي بديع.

المبحث الرابع

صور من التجديد المعاصر – قدم العالم وحدوثه أنموذجا

انقرض علم الكلام القديم لزوال دواعيه من مجابهة العلم والفلسفة اليونانيين، والفرق الضالة قديمًا؛ ولذا ينبغي تطوير علم جديد للكلام؛ للتوفيق بين الدين والنظريات المتجددة الوافدة من الغرب في ساحة العلم والفلسفة، وعلى العلم الجديد أن يواجه الشبهات والتحديات الجديدة، النابعة من اليقينيات والحقائق التجريبية، التي لا يمكن مواجهتها ومجابهتها على أرضية الفروض والاحتمالات الفكرية القديمة، كما كان الشأن في مواجهة الفلسفة اليونانية القديمة(١).

هناك علاقة وثيقة بين ما يدعيه الملاحدة من إنكار لوجود الله وبين قيام متكلمي العصر في الرد عليهم؛ إذ إن الأصول بينهم مشتركة، فإذا كان «المبتدعة يشارك بعضهم بعضًا في الأصول الكبرى، وخلافهم إنما هو في الفروع والدقائق – التي تتوزع على كل موضوعات الكلام، في الإلهيات والطبيعيات وغيرها – فإن الملاحدة على عكس ذلك خلافهم إنما هو في الأصول الكبرى، وكثير من أدلتهم وحججهم إنما هو من جنس الطبيعيات، وهو ما يعني ضرورة مشاركة المتكلمين لهم في تلك الأصول، حتى تكون إلزاماتهم ذات حجية؛ إذ غياب المرجع المشترك عند الاحتكام يغيب معه الإلزام»(٢).

إن الإلحاد المعاصر قد اتخذ من العلم التجريبي قاعدة ينطلق منها نحو إثبات ضلاله؛ وهو الميزان الذي يزنون به موقفهم، وهم يعتمدون مع ذلك على الجهل المعرفي

---

(١) ينظر: التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مذكور، (ص١٢١٦).

(٢) البحث الطبيعي في علم الكلام "سؤال الأصالة وحدود العلاقة"، ياسين السالمي، (ص٣٠٥)، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، (عدد: ٤، ٥)، ٢٠١٨م.

بالنظريات العلمية لدى العوام؛ لينشروا إلحادهم بينهم، فكان لزاما على علم الكلام المعاصر وأصحابه أن يتصدوا لهؤلاء وأمثالهم بنفس الدليل الذي يعتمدون عليه، ويعتدون به، فيكون ذلك أدعى للإذعان لمن كان همه طلب الحق.

ومن المسائل التي يمكن أن يكون لعلم الكلام الجديد مجال واسع فيها، والتي يعتمد عليها الملحدون اليوم – كما اعتمد اسلافهم عليها من قبل – هي مسألة قدم العالم وحدوثه.

فقد كانت هذه المسالة قديمًا محل جدل كبير، ودارت حولها آراء ومناقشات استحوذت على معظم المباحث الفلسفية والكلامية؛ فذهب معظم فلاسفة اليونان إلى قدمه، وذهب أفلاطون إلى حدوثه[١]، وقال فلاسفة الإسلام (الفارابي وابن سينا وابن رشد) بالقدم الزماني والحدوث الذاتي[٢]، حاشا الكندي (١٨٥- ٢٥٦هـ) الذي صرح بالحدوث[٣]، وأجمع المتكلمون على حدوثه اعتبارًا بالقرآن الكريم، والعقل الذي يحيل تعدد القدماء، وقد اشتدت المعركة بين المتكلمين في هذه القضية حتى كفر الإمام الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ) الفلاسفة في قولهم بالقدم، في كتابه: "تهافت الفلاسفة"،

---

(١) ينظر: محاورة طيماوس، لأفلاطون (ص٢١٥، : ٢٤٦: ٢٥٤)، ت/ ألبير ريفو، ترجمة: الأب فؤاد جرجي بربارة، ط/ الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق/ ط٢، ٢٠١٤م.

(٢) ينظر: الجمع بين رأيي الحكيمين، الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، (ص: ١٠٤)، قدم له وعلق عليه/ د. ألبير نصري نادر، ط/ دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، بيروت – لبنان – ط٢، ١٩٨٦م، النجاة، أبو علي الحسين بن سينا، (ص١٥٤)، نقحه وقدم له د. ماجد فخري، ط/ دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) ينظر: رسائل الكندي الفلسفية، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، (ص١١٤)، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م.

ورد عليه ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥هـ) في كتابه: "تهافت التهافت".

أما في العصر الحديث فقد كان الاعتقاد السائد في الأوساط العلمية الغربية إلي مطلع القرن العشرين أن الكون أزلي ليس له بداية، ولهذا السبب انتشر الإلحاد في القرون السابقة له.

ولكن وفي بدايات القرن العشرين اكتشف العديد من النظريات التي تؤكد حدوث العالم، ومن هذه النظريات والقوانين على سبيل المثال:

١ – نظرية النسبية عند ألبرت آينشتاين[1]:

فقد «أصبحت هناك مؤشرات تقول بحدوث الكون، بعد ما توصل آينشتاين من خلال معادلاته إلى كون غير مستقر وثابت، و في ستينيات القرن العشرين تغير كل شيء وأصبح واضحًا أن للكون بداية، بعد ما أيدت الأدلة العلمية نظرية الانفجار الكبير، وبات حدوث العالم أمرًا مفروغًا منه لدي العلماء المتخصصين في علم الكونيات، وانقلب الحال، وكانت نظرية الانفجار العظيم سببًا رئيسًا في تغير الاعتقاد في الكون، وهذا الإقرار العلمي اختصر كثيرًا من الجدل الفلسفي الكلامي المحتدم حول هذه القضية، لا سيما عند المسلمين، إلا أن الملاحدة حاولوا أن يواجهوا القول بحدوث الكون عن طريق طرح بدائل لتفسير نشأة الكون، تتماشي مع معتقداتهم في

---

(١) ولد في ١٤ مارس ١٨٧٩م في مدينة تُدعى «أُولم» بألمانيا، لأسرة يهودية تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، له العديد من الأبحاث الفيزيائية والرياضية المذهلة، أكمل النظرية النسبية العامة في عام ١٩١٥م وفاز بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢١، في المفعول الكهروضوئي، توفي في الثامن عشر من أبريل عام ١٩٥٥م. ينظر: أينشتاين حياته وعالمه، والتر إيزاكسون، (ص٣٧، وما بعد، ٥٥٢، ٥٥٦)، ترجمة: هاشم أحمد، الناشر: كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

أزلية الكون، إلا أن هذه المحاولات باءت جميعها بالفشل؛ حيث لم تستطيع أن تصمد أما المكتشفات، العلمية التي أقرت النظريات المؤيدة لحدوث الكون، وقد توالت التصريحات من قبل الملاحدة للتعبير عن صدمتهم إزاء اعتراف علماء الكونيات والدوائر العلمية الغربية بحدوث العالم، أدت هذه الصدمة بالبعض منهم أن يتخلوا عن التجرد للحقيقة، وأن يقعوا فيما عابوه علي المؤمنين من تمسكهم بعقائدهم وإن خالفت العلم، وقد كان علي الإلحاد أن يغير وجهته، ويقر بأنه قد فقد مبرره العلمي مع تطور معارف الإنسان، لكن المفاجأة التي شهدها الميدان العلمي في القرن العشرين هي أن بداية الكشف عن حقيقة خلق الكون قد قوبلت بالعناد والاستكبار في البداية ثم تطور الأمر إلي محاولة القفز فوق دلالتها الدينية اليقينية وهي أن إثبات خلق الكون من عدم يقتضي يقينا إثبات خالق لهذا الكون، ومن هذه التصريحات ما قاله بعضهم عن بدء الكون بانفجار : «إنها نتيجة غريبة لا يمكن أن تكون صحيحة»[1].

والنظرية النسبية في الحقيقة قسمان:

القسم الأول: «النسبية الخاصة» التي ظهرت في عام ١٩٠٥م.

القسم الثاني: «النسبية العامة» التي ظهرت في عام ١٩١٦م.

أما النسبية الخاصة فقد بينت «تأثيرات الحركة المنتظمة على كلٍّ من المكان والزمان، أما النسبية العامة فتتضمن التأثيرات الإضافية للعجلة والجاذبية، والنسبية

---

(١) فمن خلق الله، نقد الشبهة الإلحادية: إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذا خلق الله؟ في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي، د. سامي عامري، (ص٩٧)، ط/ دار تكوين، السعودية، ط٢، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.

الخاصة –كما يتضح من اسمها – ما هي إلا حالة خاصة من النسبية العامة الأعم والأشمل»[١].

«فالنظرية الخاصة تتناول الأجسام أو المجموعات التي تتحرك بالنسبة لبعضها بسرعة ثابتة، أي حركة منتظمة من دون عجلة (فالعجلة هي مقدار التغير في السرعة)، والنظرية النسبية العامة تعالج الأجسام أو المجموعات التي تتحرك بالنسبة لبعضها بسرعة متزايدة أو مُتناقصة، أي تتحرك (بسرعات متفاوتة وليست ثابتة)، إذن النظرية الخاصة سميت هكذا؛ لأنها حالة خاصة من النظرية العامة»[٢].

وتدل النظرية النسبية على حدوث العالم لأنها أكدت على نسبية الزمان، والمكان، والحركة، والكتلة، والمسافة، وغير ذلك من الأمور التي تحكم العالم الطبيعي.

لقد كان المعتقد لدى العلم التجريبي قديمًا أن الزمان والمكان قديمان، ولكن النظرية النسبية أدخلت حدًا جديدًا في معادلة قياس الزمان والمكان، والحركة والمسافة، وهذا الحد هو «الراصد، أو المشاهد»، واعتبرته ركنًا أساسيًا و جزءًا لا يتجزأ من أي نشاط فيزيائي، لأي حادثة تقع ضمن إطار كوننا الذي نعيش فيه، كما أدي ثبات سرعة الضوء إلى إحلال النظرة التقليدية للزمان والمكان كَبِنَىَ جامدة وموضوعية بمفهوم

---

(١) ينظر: النسبية مقدمة قصيرة جدًا، راسل ستانارد، (ص٨)، ترجمة، محمد فتحي خضر، ط/مؤسسة هنداوي للتعليم الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م، قارن؛ فلسفة العلم في القرن العشرين، د. يمنى طريف الخولي، (ص١٩١)، سلسلة عالم المعرفة "السلسة القافية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب"، الكويت، ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: النسبية مقدمة قصيرة جدًا، راسل ستانارد، (ص٨).

جديد يعتمد فيه الزمان والمكان بشكل خاص على الحركة بين الراصد والمرصود»[١]، وهذا «فيما يخص النسبية الخاصة»[٢].

أما إذا ذهبنا للنسبية العامة فيما يخص الزمان والمكان، «فإنها تضم وتدمج الزمان كبعد رابع مع الأبعاد المكانية الثلاثة، بحيث يصير الزمان والمكان وحدة واحدة متشابكة، لا انفصام فيها ولا انفصال، لتشكل بعد ذلك ما يسمى بـ «الزمكان»، ولم تكتف النسبية العامة بذلك، بل أخذت هذه النظرية في الحسبان تأثير الجاذبية، بأن تذكر أن توزيع المادة والطاقة في الكون يعمل على انحناء وتشويه «الزمكان»، بحيث لا يكون مسطحًا، بل محدبًا منحنيًا»[٣].

فكون تبعًا لهذه النظرية يتمدد، «وإذا كان الكون يتمدد بمعدل ثابت فمن الممكن النظر إليه بشكل عكسي، وإجراء حساب تقريبي للزمن الذي بدأ فيه هذا التمدد، بعبارة أخرى يمكن القول؛ إن الكون كانت له بداية...، وإذا نظرنا إلى معادلات «آينشتاين» متبعين نتائجها المنطقية فسوف نخلص إلى أن بداية الكون كانت كارثة — يقصد الانفجار العظيم – كبرى»[٤].

---

(١) ينظر: الكون الأنيق "الأوتار الفائقة، والأبعاد الدفينة، والبحث عن النظرية النهائية"، غرين برايان، (ص٦٣، ٦٤)، ترجمة، د. فتح الله الشيخ، ط/ المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: خلق الكون بين العلم والإيمان، خلق الكون بين العلم والإيمان، د. محمد الطائي، (ص١٤٠: ١٤٣)، ط/ دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٣) ينظر: الكون في قشرة جوز، شكل جديد للكون، د. ستيفن هوكينج، (ص٣٨)، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، ط/ مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٣م.

(٤) ينظر: كون آينشتاين، ميشيو كاكو، كيف غيرت رؤى ألبرت أينشتاين من إدراكنا للزمان والمكان، (ص١١٣)، ترجمة: شهاب ياسين، الناشر: كلمات عربية للترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ٢٠١٢م، الكون الأنيق، غرين برايان، (ص١٠١، ١٠٢).

فدلت النظرية النسبية بذلك على أن الزمان والمكان حادثان وليسا أزليين، وأنهما نسبيان وليسا مطلقين، وأنهما ذاتيان وليسا موضوعين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قانون الطاقة الذي اكتشفه «آينشتاين» وهو أن: (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء)، أي أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، هذا القانون يثبت «أن عدد وحدات الطاقة لجسم متحرك، أو ساكن يساوي دائمًا عدد وحدات كتلته مضروبًا في عدد ثابت وهو مربع سرعة الضوء، وبذلك يمكن التحويل من الطاقة إلى الكتلة وبالعكس، إزاء ذلك كان من الطبيعي أن يقول «آينشتاين»، بأن الكتلة والطاقة مقياسان لشيء واحد»[1].

هذا القانون يبين أمرين مهمين:

الأول: أن أي كتلة مهما كان عِظَمُ حجمها لا بد وأن تنتهي في يوم ما.

الثاني: الرد على من يقول بقدم العالم استنادًا إلى بقاء طول أعمار الكواكب والنجوم، أو أن المادة لا تفنى وإنما تتحول.

٢- القانون الثاني للديناميكا الحرارية:

وقيمة هذا القانون أنه يؤكد أن الكون كله يتجه إلى فقد طاقته، ويتحول بصورة عفوية من الحرارة إلى البرودة، ومن النظام إلى الفوضى، فكل شيء يتحول من الأعلى إلى الأدنى، إنه بعبارة عامة «قانون الكون والفساد»، وهو الحقيقة الكبرى التي ألزمت «ألبرت «آينشتاين» مؤسس نظرية النسبية ان يقول عن القانون: «إنه لا يمكن أن يتم

---

(١) ينظر: النظرية النسبية الخاصة، د. على مصطفى مشرفة، (ص٤٤)، ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩١٤م.

إبطاله في يوم ما»[1].

يقول أحد علماء الفيزياء موضحًا حقيقة هذا القانون: «يخبرنا قانون الديناميكا الحرارية الثاني أن منظومة ما تموت عندما يصل شواشها – أي نظام الفوضى والاضطراب فيها –...، وتحدث هذه الحالة من التشوش حين تصير الحياة بالفعل جزءا من بقية الكون عديم الحياة، فلا يعود للحياة أية قدرة علي التطور، ولا يخبرنا قانون الديناميكا الحرارية فقط بأن المنظومة تموت بوصول تشوشها إلي حده الأقصى، ولكنه يخبرنا أيضا بأن كل منظومة فيزيائية مقدور عليها أن تنحو نحو تشوشها الأعظم، وبما أن الحياة مجرد منظومة فيزيائية أخري معقدة فماذا يخبرنا عنها القانون الثاني ؟ إنه يخبرنا أنه حتي الحياة وهي احدي أكثر العمليات متانة في الكون لا بد وأن تنتهي في المآل الأخير، وأن فنائها في خاتمة المطاف حتمي مقضي»[2].

٣- الانفجار العظيم:

وهذه النظرية تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه منذ فترة زمنية تتراوح ما بين عشرة إلي عشرين بليون سنة تقريبًا[3] حصل انفجار عظيم، كانت منه بدايات نشأة الكون، علي أن هناك بعض التقديرات التي تحدد بالضبط متي حدث هذا الانفجار، ومن هذه التقديرات تقدير وكالة ناسا عام ٢٠١٢م، إلي أن عمر الكون هو ١٣.٧بليون سنة،

---

(١) ينظر: عامري/ د. سامي: فمن خلق الله، صـ١٠١.

(٢) ينظر: الواقع الذي نحياه، وكيف نفكك شفرته، "نظرة للكون كمعلومات كمومية"، فلاتكو فيدرال، (ص٨٦)، ترجمة: عاطف يوسف محمد، ط/المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٦م.

(٣) ينظر: الجانب المظلم للكون "عالم يستكشف ألغاز الكون"، جيمس ترافيل، (ص٥٧)، ترجمة: رؤوف وصفي، ط/ المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٦م.

وهناك تقدير آخر قررته الوكالة الأوروبية لأبحاث الفضاء وهو ١٣.٨بليون سنة تقريبًا، وذلك بعد تحليل المعلومات التي جمعها مرصد بلانك عام ٢٠١٣م[١].

ولقد مر هذا الاكتشاف العلمي المذهل العديد من البحوث بمراحل كثيرة، أدت هذه البحوث والاكتشافات إلي تدعيم نظرية أطلق عليها «نظرية الذرة الأولية» ثم اطلق عليها بعد ذلك اسم «الانفجار العظيم -Big Bang» ورغم أن هذه التسمية هي الأكثر شهرة في الأوساط العلمية اليوم، إلا أنها قد لاقت بعض الاعتراضات فعلق عليها أحدهم قائلًا: «رغم أن الجميع يسمونه الانفجار العظيم إلا أن العديد من المراجع تحذرنا من التفكير فيه كانفجار بالمعني المعهود، لقد كان بالأحرى اتساعًا مفاجئًا في غاية الضخامة»[٢].

وهذه الملاحظة قيمتها العلمية والدينية أيضًا؛ «فتسمية ما حدث عند نشأة الكون بالانفجار العظيم تسمية خادعة؛ إذ إن الانفجار يعني انتشارًا غير متجانس لشظايا في فراغ، بينما الانفجار الأعظم هو الذي أنشأ الفراغ»[٣].

وبعد عرض هذه النماذج من الاكتشافات والقوانين العلمية الحديثة، يتبين لنا قيمتها الكلامية الحديثة؛ فقد أثبت العلم اليوم أن الكون له بداية، وقرر استحالة وجوده على سبيل الأزلية، ولو أننا وظفنا هذه الحقيقة العلمية لإثبات حدوث العالم، الذي ندخل منه إلى إثبات وجود الله، وهذا أولى من الاعتماد على كلام نظري قال به السابقون.

---

(١) ينظر: عامري/ د. سامي: فمن خلق الله، صـ٨٤.

(٢) ينظر: وهم الشيطان الإلحاد ومزاعمه العلمية، ديفيد بيرلنسكي، (ص١٠٤)، ترجمة وتعليق وتوثيق: عبد الله الشهري، ط/ مركز دلائل، ط١، ١٤٣٧هـ.

(٣) شموع النهار، د. عبد الله العجيري، (ص١٢٨)، ط/ دار تكوين، السعودية، ط١، ٢٠١٦م.

إن هذا هو المدخل الصحيح لدراسة العقائد، والميدان واسع، والاكتشافات العلمية كثيرة — وما ذكرناه نماذج فقط — فقد بدأت تظهر في حياتنا المعاصرة دراسات علمية وعملية كثيرة جعلت من التقدم العلمي دعوة إلى الإيمان[1].

فإن علماء الكلام اليوم مطالبون بإبراز مثل هذه النظريات — بعد تمحيصها علميًا — وإخضاعها للنظر والاستدلال الجديد، بأن هذا الكون حادث، وله خالق مصور مبدع، أحدثه من العدم، على غير مثال سبق، وأن كل الأدلة التجريبية تصب اليوم في صالح الدين، وعقيدة الإسلام بالذات؛ فها هو العلم الذي يتشدقون به، ولا يعترفون إلا به كبديل عن الدين، يقول لهم بلسان الحال: لا أغني عن نفسي شيئًا، وإنما أنا ذرة في الكون، تدل على موجدها ومنشئها.

لطالما تغنى الملحدون بأن «العلم — التجريبي- هو المصدر الوحيد والأوحد للمعرفة وإذا بهم يتنكرون لحقائق العلم، ربما يوضح حقيقة موقف الملاحدة من الدين - أن دافعهم الأكبر علي الأديان مبناه الحقد الشديد عليها لا سبب آخر- ما صرح به «كارل ساجان- Carl Sagan»[2]، بشأن نشأة الكون، قائلًا: «نتمنى أن نتبع الحق أينما يقودنا، إلا إذا قادنا إلي تفسير ديني»[3].

---

(١) ينظر: المدخل إلى دراسة العقيدة والأديان، د. محمد عبد الستار نصار، د. عائشة يوسف المناعي، (ص ٨١).

(٢) ولد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٤م،)، وهو عالم الفلك والكونيات ومن المهتمين بالحياة خارج كوكب الأرض، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية ناسا، توفي عام ١٩٩٦م، ينظر: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص٣٢٥)، ط/ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.

(٣) عشرة أنواع للإلحاد، أليكس ماكسفريلاند، (ص٧١)، ترجمة القس جورج عزت، ط/ دار الثقافة، ط١، ٢٠١٤م.

فالنظريات العلمية الثابتة أثبتت حدوث الكون، ولكن الملاحدة يمنون أنفسهم بأن يأتي في قادم الأيام ما يهدمها، أو تكتشف نظريات جديدة تخدم أهوائهم، «فلقد اعترضوا علي نظرية الانفجار العظيم وتوقعوا سقوطها، وأن تنهار في غضون عقد من الزمن، حينما تأتي الأيام وهي حبلي بالاكتشافات العلمية التي تهدم نظرية الانفجار العظيم، وتؤسس أو تعيد الاعتبار للقائلين بأزلية الكون»[١].

وهذا هو ما ينبغي أن ينتهزه علم الكلام اليوم ويستغله لصالح العقيدة الإسلامية؛ فها هي النظريات العلمية الحديثة تثبت حدوث الزمان والمكان، أي حدوث العالم، وهذا دور الضرورة العقلية؛ فطالما أنه حادث فلا بد له من محدث وخالق، وهذا الخالق هو الله تعالى؛ فلم يدع أحد أنه خلق الكون وأوجده إلا هو، بل وأخبر عن طريقة خلقه؛ فقال ﷻ معنفًا الملحدين والكافرين: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]،

ونعجب من دقة نظر كثير من المفسرين في تأويل هذه الآية مع اختلافهم فيها؛ فقد اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال: قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس } أن المعنى: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقر الأرض (هكذا) قال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين، ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها، وقول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة، ففتق الله

(١) فمن خلق الله، د. سامي عامري، (ص٩٨).

السماء بالمطر، والأرض بالنبات والشجر[١]، وهذا الرأي الثاني متمم للأول ومعاضد له.

والعلم الحديث اليوم يؤكد نظرية الانفجار العظيم، بما يتفق مع ما جاء به الوحي الإلهي منذ مئات القرون، ونحن كمسلمين لا نحتاج إلى مثل هذه النظريات، ولكننا نقول للملاحدة الذين استندوا في إنكارهم لوجود الله إلى العلم الحديث: ها هو العلم الحديث الذي طالما تشدقتم به يخذلكم في قضيتكم الأساسية، ويصرخ في وجوهكم: هذا الكون البديع، الذي لم نصل بعد إلا إلى معرفة القليل عنه مخلوق مخترع، ومحال أن يكون قد نشأ من نفسه؛ فمن ورائه إله حكيم عليم، أبدع فأحسن، وخلق فسوى.

فالأمر الذي أريد أن أنبه عليه في النهاية هو أننا لا ننظر في القوانين والنظريات العلمية الحديثة على أنها حاكم على قضايا العقيدة، بمعنى أنها تثبت بها؛ فليس هذا مطروحًا على مائدة البحث؛ لأنه - ببساطة - لا يحكم باللاحق على السابق، ولا يثبت به، وإنما هو من باب إيراد الدليل على الصحة، من جنس ما استدل به المعارض على الفساد والبطلان؛ فالخصم يستعين بأدلة العلم التجريبي على قدم العالم - مثلًا - وبالتالي نفي وجود الله، ولنا أن نرد الدليل عليه لإثبات العكس، وهو الحدوث الدال على وجود المحدث، فنقول لهم: إن ما ظننتم أنه سند لكم في إلحادكم ونفيكم للدين، هو بذاته الذي يرد عليكم قولكم، وينفيه وينقضه.

إن القواعد العلمية الحديثة تثبت اليوم أن الكون يسير على نظام دقيق؛ فلا بد له من منظم، وأن وحدة النظام تدل على وحدة الفاعل، وأن الوحي الإلهي الذي هو غيب، يدل العلم الحديث اليوم على إمكانه[٢]، ووجود الأرواح وتأثير بعضها في بعض...، والقضايا في ذلك كثيرة، وما ذكرناه كان نماذج وأمثلة يقاس عليها، وليست تقف عندها فقط.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، (١٤٠/٢٢)، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) للباحث دراسة بعنوان: (إمكان الوحي بالأدلة العلمية الحديثة) حولية مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط الجديدة، ٢٠١٨م.

خاتمة

بعد الوصول لنهاية المطاف، وليس آخر الطريق، يمكن استخراج النتائج الآتية:

١ – أن علم الكلام قديما كان حاجة ملحة؛ لتلبية مطلب إسلامي ضروري، وهو الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد الشانئين لها، ورد شبهاتهم بنفس الأسلحة التي اعتمدوا عليها في الهجوم عليه، أو التي كانت سببًا في نأيهم عنها.

٢– أن خلافات المسلمين حول الإمامة وبعض المسائل العقدية، وافتراق الأمة إلى فرق وأحزاب، وحرص كل حزب على أن يكون له في مدعاه سندًا من كتاب الله، كانت سببًا في وجود هذا التراث الكلامي الضخم، الذي كانت له أهمية كبرى في زمانه ومكانه.

٣– أن المعترضين على علم الكلام برمته انصب كلامهم على أهل البدع الضالة من الجهمية والكرامية والخوارج، وبعض المعتزلة، وأنه لا يمكن أن يقصدوا به مجموع الأشاعرة والماتريدية؛ لعدم ظهورهم وبعد، ولعدم أخذهم بما كان سببًا في نقد هذا العلم، بل على العكس كانوا يزودون عن حياض الإسلام بكل دليل أمكنهم، وإن غالى بعضه في الدليل العقلي، فما كان ذلك إلا لتوسع مخالفيهم فيه.

٤– حاول علماء الكلام قديمًا تخليص هذا العلم من شوائبه، وتنقيته من أدرانه، ووضع ضوابط للاشتغال به، وإن لم يكتب لهذه المحاولة النجاح التام.

٥– أن التجديد إلى جانب كونه مطلبًا دينيًا مهما إلا أنه ديناميكية ذاتية في الإسلام، فالله ﷻ يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها، كما أخبر الصادق المعصوم، وأن هذا التجديد الذاتي هو عنوان حضارة الإسلام، وسر استمراريتها إلى قيام الساعة.

٦- أصبحت اليوم الحاجة ملحة وضرورية لقيام علم كلام جديد؛ نظرًا لعودة بعض أسبابه القديمة، وأهمها شيوع الإلحاد، وبروز قضايا جديدة على الساحة، تحتاج من المعاصرين أن يقوموا عليها، كما قام على أمثالها أمثالهم من قبل.

٧- لبناء علم كلام جديد كان لا بد من هدم القديم؛ بتجنب مساويه ومثالبه، ثم بناء المنهج الجديد.

٨- من أهم قواعد المنهج الجديد لعلم الكلام المعاصر سبر غور الأفكار والفلسفات الحديثة، والنظريات العلمية القائمة على التجربة، وإبراز حقيقة مهمة، وهي أن هذه العلوم تصب في صالح العقيدة وليس ضدها.

٩- أن جل القوانين والاكتشافات العلمية الحديثة أكدت – بما لا يدع مجالا للشك – قضايا العقيدة الإسلامية، وأهمها وجود خالق وصانع للكون، أخرجه من العدم، وهو الحافظ له من الزوال والتلاشي.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيًا: المراجع العامة

١. الاجتهاد الكلامي، مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد، عبد الجبار الرافاعي، ط/ دار الهادي – بيروت – ٢٠٠٢م.

٢. إحصاء العلوم، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، ت/ د: عثمان أمين، ط/ دار الفكر العربي، الناشر/ مطبعة الاعتماد بمصر، ط٢، ١٩٤٩م.

٣. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، (١/ ٨٧، ٨٨)، ط/ النور الإسلامية، بدون تاريخ.

٤. الإرشاد لإمام الحرمين الجويني، د. محمد يوسف موسف، علي عبد المنعم عبد الحميد، (ص: ش، ط) ط/ مكتبة الخانجي – مصر – ط٣، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥. أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، فهمي جدعان، ط/ دار المشرق – عمان – ط٣، ١٩٨٨م.

٦. الإسلام بين التجديد المطلوب والتبديد المرفوض، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مؤتمر المجلس العلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.

٧. إشكاليات التجديد، د. ماجد الغرباوي، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الناشر: دار الهادي – بيروت – ط١، ٢٠٠١م.

٨. الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي، د. محمد رأفت سعيد، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

٩. الاعتقاد، موفق الدين بن قدامة المقدسي، ت/ عادل عبد المنعم أبو العباس، ط/ مكتبة القرآن، سنة ١٩٩٠م.

١٠. إلجام العوام عن علم الكلام، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ط/ دار المنهاج، ط١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م.

١١. أينشتاين حياته وعالمه، والتر إيزاكسون، ترجمة: هاشم أحمد، الناشر: كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٢. البحث الطبيعي في علم الكلام "سؤال الأصالة وحدود العلاقة"، ياسين السالمي، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، (عدد: ٤، ٥)، ٢٠١٨م.

١٣. التبصير في الدين، أبو المظفر، طاهر بن محمد الإسفراييني، ت/ محمد بن زاهد الكوثرى، ط/ مطبعة الأنوار، ط١، ١٩٤٠م.

١٤. التجديد في علم الكلام، د. عبد الحميد مدكور، ضمن موسوعة العقيدة الإسلامية، إشراف وتقديم: د. محمود حمدي زقزوق، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

١٥. تحريم النظر في كتب الكلام، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ت/ عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ط/ عالم الكتب – السعودية – الرياض، ط/١، سنة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

١٦. تحفة المريد على جوهرة التوحيد، الشيخ إبراهيم البيجوري، (ص١٦)، ط/المعاهد الأزهرية، سنة ١٩٩٧م.

١٧. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت — ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

١٨. التفكير الفلسفي في الإسلام، د: عبد الحليم محمود، ط/ دار المعارف، ط٢، بدون تاريخ..

١٩. تمهيد لتاريخ الفلسفة، الشيخ مصطفى عبد الرازق، الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية — القاهرة – .

٢٠. التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل، الإمام عبد الحليم محمود، ط/ دار الكتب الحديثة، سنة١٩٧٣م.

٢١. الثقافة والعقيدة الإسلامية د: محمد عزيز نظمى سالم، ط/ مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٦م.

٢٢. الجانب المظلم للكون "عالم يستكشف ألغاز الكون"، جيمس ترافيل، ترجمة: رؤوف وصفي، ط/ المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٦م.

٢٣. الجمع بين رأيي الحكيمين، الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، قدم له وعلق عليه/ د. ألبير نصري نادر، ط/ دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، بيروت — لبنان – ط٢، ١٩٨٦م.

٢٤. جولة في كتاب الهندسة المعرفية للكلام الجديد، د. أحمد فراملكي، نشر بواسطة: حسن يحيى، يناير ٢٠١١م.

٢٥. خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، ط/ مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.

٢٦. خطة مقترحة لتجديد علم الكلام، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، حققه وقدم له: د. فيصل بدير عون، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١١م.

٢٧. خلق الكون بين العلم والإيمان، خلق الكون بين العلم والإيمان، د. محمد الطائي، ط/ دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٨. درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، ت/ عبد اللطيف عبد الرحمن، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٩. دلائل التوحيد، جمال الدين القاسمي، ت/ محمد حجازي، ط/ مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٩٨٦م.

٣٠. دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، ط/ دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

٣١. دور العقيدة في حياة الإنسان المعاصر، مقال بعنوان: "نحو قراءة جديدة لعلم الكلام، د. فيصل بدير عون، كتاب المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم — جامعة القاهرة —١٤١٩هـ - ١٩٨٨م.

٣٢. رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن علي الحسني الندوي، ط/ دار ابن كثير — دمشق — بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٣٣. رسالة التوحيد، الإمام/ محمد عبده، الناشر: مطابع دار الكتاب العربي، سنة ١٩٦٦م.

٣٤. رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، نشرها عن الأصل المطبوع (الطبعة الثانية) وعلق عليها الأب ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي، حيدر آباد الدكن — الهند — ١٣٤٤هـ.

٣٥. رسائل الكندي الفلسفية، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٣٦. سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، ت/ محمد عبد القادر عطا، ط/ مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ — ١٩٩٤م.

٣٧. سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، ت/ أحمد محمد شاكر وآخرون ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت –.
٣٨. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ت/ د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ١٤١١ – ١٩٩١م.
٣٩. شرح العقائد النسفية، سعد الدين مسعود ابن عمر التفتازاني، ت/ د: أحمد حجازي السقا، الناشر/ مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٤٠. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ط/ المكتب الإسلامي – بيروت – ط/٤، سنة١٣٩١م.
٤١. شرح المقاصد، مسعود بن عمر بن عبد الله، الشهير بسعد الدين التفتازاني، (ت: ٧٩٢)، ت/ إبراهيم شمس الدين، ط١/دار الكتب العلمية، سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
٤٢. شرح المواقف، المواقف للقاضي عضد الدين بن عبد الرحمن الإيجي (ت: ٧٥٦هـ)، وشرحه للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت:٨١٦هـ)، ت/ محمود عمر الدمياطي، ط١/دار الكتب العلمية، سنة ١٩٩٨م، ١٤١٩هـ.
٤٣. شموع النهار، د. عبد الله العجيري، ط/ دار تكوين، السعودية، ط١، ٢٠١٦م.
٤٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٤٥. صون المنطق الكلام عن فني المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، تعليق على سامي النشار، ط/ دار الكتب العلمية، سنة ١٩٤٧م.
٤٦. ضرورة التجديد، د. أحمد الطيب، مؤتمر المجلس العلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.
٤٧. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، ط/ دار صادر، بيروت.
٤٨. عشرة أنواع للإلحاد، أليكس ماكسفريلاند، ترجمة القس جورج عزت، ط/ دار الثقافة، ط١، ٢٠١٤م.
٤٩. العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها، د: محمد عبد الستار نصار، ط/ دار الطباعة المحمدية، ط/٢، سنة ١٩٨٩م.

٥٠. العقيدة الإسلامية في الواقع المعاصر في إطار التجديد وضوابطه، د. محمد عبد الستار نصار، ضمن أبحاث مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م.
٥١. عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، د. يحيى هاشم حسن فرغل، ط/ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، السنة الخمسون، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.
٥٢. الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (ت: ٤٢٩هـ)، ت/ محمد عثمان الخشت، ط/ مكتبة ابن سينا، بدون تاريخ.
٥٣. فلسفة العلم في القرن العشرين، د. يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة "السلسة القافية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب"، الكويت، ٢٠٠٨م.
٥٤. فمن خلق الله، نقد الشبهة الإلحادية: إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذا خلق الله؟ في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي، د. سامي عامري، ط/ دار تكوين، السعودية، ط٢، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.
٥٥. قَانون التَّأويْل، القاضي أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله المعافري، ت/ محمّد السّليماني، ط/ دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة - جَدّة - مؤسَسَة عُلوم القرآن - بيروت - ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
٥٦. القول السديد في علم التوحيد، الشيخ محمود أبو دقيقة، (٢١٧/١)، ت/د: عوض الله حجازي، ط/الإدارة العامة لإحياء التراث، ط/١، سنة ١٤٠٥هـ. ١٩٩٥م.
٥٧. كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، ت/ لطفي عبد البديع، راجعه/ أمين الخولي، ط/ وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الناشر/ مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٣م.
٥٨. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (ت/ محمود عمر الدمياطي، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٥٩. الكون الأنيق "الأوتار الفائقة، والأبعاد الدفينة، والبحث عن النظرية النهائية"، غرين برايان، ترجمة، د. فتح الله الشيخ، ط/ المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
٦٠. كون آينشتاين، ميشيو كاكو، كيف غيرت رؤى ألبرت أينشتاين من إدراكنا للزمان والمكان، ترجمة: شهاب ياسين، الناشر: كلمات عربية للترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ٢٠١٢م.

٦١. الكون في قشرة جوز، شكل جديد للكون"، د. ستيفن هوكينج، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، ط/ مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٣م.
٦٢. محاورة طيماوس، لأفلاطون، ت/ ألبير ريفو، ترجمة: الأب فؤاد جرجي بربارة، ط/ الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق/ ط٢، ٢٠١٤م.
٦٣. المدخل إلى دراسة العقيدة والأديان، د. محمد عبد الستار نصار، د. عائشة يوسف المناعي، الناشر: مكتبي للطباعة والكمبيوتر – طنطا – ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
٦٤. المدخل إلى دراسة علم الكلام، د. حسن محمود الشافعي، ط/ مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٩١م.
٦٥. مدخل نقدي لدراسة علم الكلام، د. محمد الأنور السنهوتي، ط/ دار الثقافة العربية، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
٦٦. مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوى، ط/ بيروت، ١٩٩٦م؛ حيث عرض لعلم الكلام تعريفاً، وشرحاً وموضوعاً، وفائدةً، كما تعرض لعدة مسائل مهمة تخص علم الكلام.
٦٧. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ت/ مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
٦٨. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت: ٨٠٦هـ)، ط/ دار ابن حزم، بيروت – لبنان – ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
٦٩. مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبرى زاده، ط/ دار الكتب العلمية، سنة١٩٨٥م.
٧٠. مقدمة بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ط/ دار القلم، ط٥، – بيروت – ١٩٨٤.
٧١. مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ)، ت/ السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث – القاهرة – ط١، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.
٧٢. منهاج العابدين، (محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ت/ محمود مصطفى حلاوي، ط/ دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
٧٣. المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، ت/ عبد المجيد تركي، ط/ دار الغرب الإسلامي، ط٣، ٢٠٠١م.

٧٤. المنية والأمل، أحمد بن يحيى المرتضى، ت/ توما أرنلد، طبعت بمطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، ١٣١٦هـ.

٧٥. النجاة، الرئيس أبو علي الحسين بن سينا، نقحه وقدم له د. ماجد فخري، ط/ دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

٧٦. نحو منهج جديد في العلوم الإسلامية: علم العقيدة بين الواقع والمأمول، د. نظير محمد النظير عياد، حولية مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق، العدد الثالث عشر، المجلد الأول، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٧٧. النسبية مقدمة قصيرة جدًا، راسل ستانارد، ترجمة، محمد فتحي خضر، ط/مؤسسة هنداوي للتعليم الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م.

٧٨. النظرية النسبية الخاصة، د. على مصطفى مشرفة، ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩١٤م.

٧٩. الواقع الذي نحياه، وكيف نفكك شفرته، "نظرة للكون كمعلومات كمومية"، فلاتكو فيدرال، ترجمة: عاطف يوسف محمد، ط/المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٦م.

٨٠. وهم الشيطان، الإلحاد ومزاعمه العلمية، ديفيد بيرلنسكي، ترجمة وتعليق وتوثيق: عبد الله الشهري، ط/ مركز دلائل، ط١، ١٤٣٧هـ.

فهرس الموضوعات